

جمال بدوي

المغارة والغابة



دار الشروق

الطغاة
والبنغاة

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
استسرا محمد المعتم عام ١٩٦٨

القاهرة ١٦ شارع حواد حسي - هاتف ٣٩٢٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تليكس SHROK UN 91091
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨٦٧٥٥٥ - تليكس SHROK 20171 LE

جمال بدوي

الطغاة والغاة

دار الشروق

الحسين سيد الشهداء

يقول كاتب العربية الأكبر عباس محمود العقاد في مقدمة كتابه الجليل (الحسين أبو الشهداء): مسكينة هذه الإنسانية! . . . لاتزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء . . . بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة، دون سائر الأزمنة الغابرة، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الإنسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد في الضمير وفي الروح كما وجدت في الخريطة الجغرافية وفي برامج السفن والطائرات . . . الوحدة الإنسانية اليوم حقيقة واقعية عملية في كل شيء إلا في ضمير الإنسان وروح الإنسان.

إنها حقيقة واقعية في اشتباك المصالح التجارية، وفي اتصال الأخبار في كل عصب من أعصاب الكرة الأرضية، فلا يضطرب عصب في أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب في أقصى الشمال والجنوب. الوحدة الإنسانية حقيقة واقعية في كل شيء إلا في ضمير الإنسان وفي روح الإنسان، وهذا هو المهم والأهم إذا أريدت للإنسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام . . . ولن توجد هذه الوحدة إلا إذا وجد الشهداء في سبيلها. فأنعم بمقدم «أبي الشهداء» من جديد إلى ضمائر فريق كبير من بنى الإنسان، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات في سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال . . .

يمضى الأستاذ العقاد فيقول : نتفائل أو لانتفائل . . نتشاءم أو لا نتشاءم . . ليست هذه هى المسألة ، وإنما المسألة هى أن طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء . . . ثم يؤكد العقاد قيمة الاستشهاد كضرورة للتقدم الإنسانى ، ويرى أنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية ، فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته فى سبيلها . .

● لابقاء للإنسانية بغير الاستشهاد . . وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية إلى ذكرى شهيدها الأكبر فنحنى الرؤوس إجلالا لأبى الشهداء . . الحسين ابن على بن أبى طالب رضوان الله عليه .

ولم أجد ، على كثرة ماقرأت فى ملحمة استشهاد الحسين ، أروع من هذه الكلمات التى سطرها الأستاذ - العقاد - وأنا أتحسس طريقى على استحياء إلى محراب الحسين أتفياً ظلال الدوحة العظيمة التى غرس بذرتها فى ذلك اليوم الخالد من عاشوراء عام ٦١ هجرية ، ثم لم تلبث أن تشابكت أغصانها وتفرعت لتعم الجنس البشرى ، ولسوف تمضى القرون والعهود وتظل هذه الدوحة مورقة فيحاء يحتمى بها الإنسان كلما اكتوى بنار الظلم والأثرة والطغيان ، وكلما أضناه الشوق إلى نور العدل والحق والإنصاف ، ولكن الجديد فى دوحة الحسين أنك لا تجلس فى ظلالها جلوس العاجز البائس المستكين . . ولكن جلوس الفارس الذى يتزود معين العزم والجلد والصبر ثم يستأنف المسير ويواصل الكفاح دون النظر إلى نتيجة المعركة . . نحسر أم كسب ! عاش أم قتل . . ! فالشهداء لهم حسابات خاصة تختلف عن حسابات العجزة والقاعدين . . وإنما هم

ينظرون إلى بعيد وعلى ظهورهم أوزار قومهم . . وفي قلوبهم هموم الناس جميعا . . ونصب أعينهم اليوم الذى ينتصر فيه العدل . . ويندحر الضلال . . ويسود الحق وينهزم الظلم . . وتتحقق السعادة لهذا الإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض فبغى بعضهم على بعض . . واستأثر بالنعمة الأقوياء والطغاة . . وكانت المظالم نصيب الفقراء والمستضعفين .

● نفر قليل :

كان من الجائز أن يقعد الحسين فى بيته منعما مكرما كما قعد غيره . . أو يؤثر الصمت وينشد السلامة كما فعل الأكثرون بعد أن دانت الدنيا لبنى أمية . . وسعى النهازون والوصوليون إلى قصورهم يغرفون من أموال المسلمين بغير حق ، نعم . . لم يشأ الحسين أن يكون من القاعدين ، ومضى إلى قدره غير هياب . . ولا حاسب حساب القوة الجبارة التى سيواجهها بعد حين ، وما ظنك برجل يواجه دولة بجيشها وسلاحها وحديدها ونارها . . وليس معه من الرجال سوى نفر قليل ! ولكنها المواجهة بين المثل العليا والمبادئ النبيلة فى قوتها ووهجها . . وبين السلطة الغاشمة فى ضعفها وخوائها المتخفى بستار زائف من القوة العضلية . . أو هى المواجهة بين صاحب الحق فى يده سلاح التضحية والإيمان والفداء . . وبين الغاصب الذى يدافع عن منافع دنيوية رخيصة ، فيخسر الأول معركة الفناء ، ويكسب البقاء إلى أبد الأبد . . ويكسب الثانى معركة الباطل ويخسر نفسه فى سجل التاريخ ، ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذه الكلمة المستنيرة : ليس من أراد الحق فأخطأه كمن أراد الباطل فأصابه . .

ولك أن تنظر الآن إلى النتائج النهائية لهذه المعركة بعد أن انقشع غبارها منذ نحو أربعة عشر قرنا . . ولك أن تسأل نفسك : من الذى كسب؟ ومن الذى خسر؟ وسوف تجد الجواب فى قلوب الملايين التى

عاشت طيلة هذه القرون وهى تلهج بذكر الحسين . . وتلعن يزيد كلما جاء ذكره حتى قالت العامة : إلعن يزيد . . ولا تزيد . .

نعم . . أين قتلة الحسين فى صحائف التاريخ . . ؟ هل تُحسُّ منهم من أحد أو تسمعُ لهم ذكرا . . ؟ هل تسمع عن عبيد الله بن زياد أو شمر ابن ذى الجوشن أو عمر بن سعد . . أو . . أو . . من هذه العصابة الباغية التى فقدت عقلها وضميرها وروحها وتناولت على ابن بنت رسول الله فحزت رأسه ووطئت ظهره وبطنه بخيلها وسرقت ثيابه ومتاعه وتركته فى العراء . . ثم عادت إلى سيدها تقبض ثمن شجاعته وفروسيته!! أو قل ثمن نذالتها وخستها!! لن تجد ذكر واحد من هؤلاء الأوغاد إلا مصحوبا باللعنات، مقرونا بالازدراء . . ثم . . أين الحسين من هذا كله؟؟ إنك تراه فى معانى العدل والشرف والتضحية والشجاعة والفداء والفروسية وقد تحول إلى رمز لكل هذه القيم النبيلة . . تراه فى بطولات الشهداء الذين تأسوا به وساروا على دربه واسترخصوا الدنيا من أجل المثل العالية . . وهانت عليهم الحياة الفانية شوقا إلى حياة المجد والخلود . . نراه فى صدور المناضلين الذين يؤرقهم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ويؤذيه الاستبداد والطغيان فيهبون لإزالة هذه التشوهات التى تقبح وجه الإنسانية وتجعل الحياة كثيية سقيمة . .

هكذا فعل الحسين وهو يرى بنى أمية يزدادون عتوا وغرورا . . ويمشون على رقاب البشر دون اعتبار لتلك القيم العظيمة التى جاء بها الإسلام . . لقد عادوا إلى جاهليتهم واستعادوا التقاليد التى كانوا عليها قبل أن يدخلوا الإسلام مجبرين يوم الفتح ، يقول سيد أمير على فى كتابه (روح الإسلام) : ومع ارتقاء معاوية الخلافة عاد حكم الأوجاركية - الأقلية - الوثنية السابقة ، فاحتل موقع ديمقراطية الإسلام ، وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من قلاعات وكأنها بعثت من جديد ، كما وجدت الرذيلة والتبذل الخلقى لنفسيهما متسعا فى كل مكان ارتادته رايات حكام الأمويين من قادة جند الشام .

● الصراع الجديد :

لقد استأنف الأمويون صراعهم القديم ضد بنى هاشم تحت مظلة الإسلام مثلما كان تحت مظلة الجاهلية، وكانت الحلقة الأولى من هذا الصراع العلنى فيما جرى بين رأس البيت الهاشمى أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ورأس البيت الأموى معاوية بن أبى سفيان وما كان بينهما فى صفين وفى غير صفين.. ثم كانت الحلقة الثانية من الصراع فيما كان لابد أن يحدث بين الحسين بن على وبين يزيد بن معاوية الذى جاء عليه الدور ليرث الحكم بمقتضى ذلك الإجراء الدخيل الذى ابتدعه معاوية حين فرض على الناس أن يبايعوا يزيد وليا لعهد أبيه، وفى شهر رجب سنة ٦٠هـ هلك معاوية.. وقفز يزيد إلى العرش.. وعندئذ تحرك الحسين ليواجه الحاكم الجديد الذى يفتقر إلى الحد الأدنى من الصفات التى ينبغى أن يتحلّى بها خليفة المسلمين.. فلم يكن يزيد على شىء من بعض الصفات المحمودة التى كانت لأبيه أو لأجداده من السادة الأمويين، وإنما جاء يزيد فى أعقاب السلالات - أو عكارة البيت كما يقول العامة فجمع أسوأ الخلال، ولم تجمع الروايات على شىء كإجماعها على إدمانه الخمر، وشغفه باللذات، وتوانيه عن العظام، حتى أصيب بمرض الكبد من إدمان الشراب والإفراط فى اللذات وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين، وكان ولعه بالصيد شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب القروء والكلاب، فكان له قرد يدعو «أباقيس» يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة، ويحضره مجالس الشراب، ويركبه أتاناً - حماراً - فى السباق ويحرص على أن يراه سابقاً مجلياً على الجياد..

● البيعة :

هل كان من الممكن لرجل هذه صفاته واهتماماته أن يكون خليفة للمسلمين؟

لاشك أن هذا السؤال ورد على خاطر الحسين بن علي ، وهو في المدينة بعد أن تلقى نبأ وفاة معاوية ، وكان يعلم جيدا أن الحاكم الجديد لن يتركه حتى ينتزع منه البيعة - الاعتراف بخلافته - مع النفر الذين أبوا على معاوية البيعة ليزيد وهم : الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير . فكتب الخليفة الجديد إلى أميره على المدينة - الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - رسالة يبلغه فيها نبأ وفاة معاوية ومعها رسالة أخرى - سرية - كأنها أذن فارة ، كما وصفها المؤرخون ، يطلب إليه فيها « أن يأخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا . » وفي ذلك الحين كان الحسين وابن الزبير في المسجد عندما حل عليهما مندوب الأمير يطلب إليهما المثل عندده ، فقالا له : انصرف الآن . . وسوف نأتيه . . ومكث الحسين وابن الزبير يخرمان سبب الدعوة ، فقال الحسين : إنى أرى أن طاغيتهم - يقصد معاوية - قد هلك ، فقال ابن الزبير ، وأنا ما أظن غيره ، ثم نهض الحسين فأخذ معه مواليه وذهب إلى بيت الإمارة وقال لمواليه : إن سمعتم أمرا يرييكم فادخلوا . . فسلم على الوليد وجلس ، وعنده مروان بن الحكم ، فناوله الوليد كتاب يزيد الذى ينعى فيه معاوية ، فاسترجع - يعنى قال إنا لله وإنا إليه راجعون - وقال : رحم الله معاوية ، وعظم لك الأجر . . فدعاه الأمير إلى البيعة ، فقال له الحسين : إن مثلى لا يبايع سرا ، وما أراك تجتزئ منى هذا . . ولكن إذا اجتمع الناس دَعَوْتنا معهم فكان أمرا واحدا . . فقال له الوليد وكان إنسانا كريما يؤثر العافية - انصرف على اسم الله حتى تأتينا في جماعة . . فقال مروان : والله لئن فارقتك ولم يبايع الساعة ليكثرن القتل بينكم وبينه . . فاحبسه ولا تخرجه حتى يبايع وإلا ضربت عنقه . . فنهض الحسين ، وقال : يا ابن الزرقاء أنت تقتلنى؟! كذبت والله وأثمت!! ثم انصرف الحسين إلى داره . فقال مروان للوليد : والله لا تراه بعدها أبدا . . فقال الوليد : : والله يامروان ما أحب أن لى الدنيا وما فيها وأنى قتلت الحسين . . فسبحان الله!! اقتل حسينا إن قال لا أبايع؟

والله أنى لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة . .

● جبهة المعارضة :

وغادر الحسين المدينة إلى مكة ، وكان عبد الله بن الزبير قد سبقه إليها . . وصارت مكة موطناً لجبهة المعارضة ، وبدأت من هناك الأحداث تسير في طريقها المحتوم نحو المواجهة بين يزيد ومعارضيه الذين رفضوا البيعة له . وأخذت تتوافد رسل المعارضين لحكم بنى أمية من العراق على الإمام الحسين تدعوه إلى الذهاب إلى الكوفة ليقود منها حركة المعارضة ضد بنى أمية ، وسارت الأحداث تترى نحو كربلاء . . وهى أحداث لا بد أن تعايشها حتى منتهاها ، وقد ورد ذكرها في كل كتب المؤرخين الأوائل مثل الطبرى وابن الأثير، ولكنى اخترت لك ما ذكره الإمام المفسر المؤرخ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ في كتابه الشهير « البداية والنهاية » . .

وسجل فيه تفاصيل المأساة التى أودت بحياة الحسين . على النحو التالى :

● وقد كثر وزُود الكتب عليه من بلاد العراق يدعونه إليهم - وذلك حين بلغهم موت معاوية وولاية يزيد . ومصير الحسين إلى مكة فراراً من بيعة يزيد - فكان أول من قدم عليه عبد الله بن سبيع الهمداني ، وعبد الله ابن وال ، معها كتاب فيه السلام والتهنئة بموت معاوية ، فقدموا على الحسين لعشر مضي من رمضان من هذه السنة ، ثم بعثا بعدهما نفرًا منهم قيس بن مسهر الصدائي ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن الكواء الأرحبي ، وعمارة بن عبد الله السلولى ، ومعهم نحو مائة وخمسين كتاباً إلى الحسين ، ثم بعثوا هانيء بن هانيء السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفى ومعهما كتاب فيه الاستعجال فى السير إليهم ، وكتب إليه شيب بن ربيع ، وحجار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث بن رويم ، وعمرو بن

حجاج الزبيدي، ومحمد بن عمر بن يحيى التميمي: أما بعد فقد اخضرت الجنان، واينعت الثمار، ولطمت الجحام، فإذا شئت فأقدم على جند لك مجندة، والسلام عليك.

● فاجتمعت الرسل كلها بكتبها عند الحسين، وجعلوا يَسْتَحِثُّونَهُ، ويستقدمونه عليهم ليبايعوه عوضاً عن يزيد بن معاوية، ويذكرون في كتبهم أنهم فرحوا بموت معاوية، وينالون منه ويتكلمون في دولته، وأنهم لما يبايعوا أحداً إلى الآن. وأنهم ينظرون إلى قدومك إليهم ليقدموك عليهم.

● فعند ذلك بعث الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى العراق، ليكشف له حقيقة هذا الأمر والاتفاق، فإن كان متحتماً وأمرأً حازماً محكماً، بعث إليه ليركب في أهله وذويه، ويأتي الكوفة ليظفر بمن يعاديه، وكتب كتاباً إلى أهل العراق بذلك. فلما سار مسلم من مكة اجتاز بالمدينة فأخذ منها دليلين فسارا به على برارى مهجورة المسالك، فكان أحد الدليلين منهما أول هالك، وذلك من شدة العطش، وقد ضلوا الطريق فهلك الدليل الواحد بمكان يقال له المضيق، من بطن خبيث، فتطير به مسلم بن عقيل، فتلث مسلم على ما هنالك ومات الدليل الآخر فكتب إلى الحسين يستشير في أمره، فكتب إليه يعزم عليه أن يدخل العراق، وأن يجتمع بأهل الكوفة ليستعلم أمرهم ويستخبر خبرهم.

● فلما دخل الكوفة مسلم نزل على رجل يقال له مسلم بن عوسجة الأسدي، وقيل: نزل في دار المختار بن أبي عبيد الثقفي، فالله أعلم.

● فتسامع أهل الكوفة بقدومه فجاءوا إليه فبايعوه على إمرة الحسين، وحلفوا له لينصُرَنَّهُ بأنفسهم وأموالهم، فاجتمع على بيعته من أهلها اثنا عشر ألفاً، ثم تكاثروا حتى بلغوا ثمانية عشر ألفاً، فكتب مسلم إلى الحسين ليقدم عليها، فقد تمهدت له البيعة والأمور، فتجهز الحسين من مكة قاصداً الكوفة، كما سنذكره.

● وانتشر خبرهم حتى بلغ أمير الكوفة النعمان بن بشير خبره رجل بذلك ، فجعل يضرب عن ذلك صفحا ولا يعبا به . ولكنه خطب الناس ونهاهم عن الاختلاف والفتنة وأمرهم بالائتلاف والسنة . وقال : إنى لا أقاتل من لا يقاتلنى ، ولا أثب على من لا يثب على ، ولا آخذكم بالظنة ، ولكن والله الذى لا إله إلا هو لئن فارقتم إمامكم ، ونكثتم بيعته لأقاتلنكم مادام فى يدى من سيفى قائمته .

● فقام إليه رجل يقال له عبد الله بن مسلم بن شعبة الحضرمى فقال له : إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالغشمة ، وإن الذى سلكته أيها الأمير مسلك المستضعفين فقال له النعمان : لأن أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون من الأقوياء الأعزى فى معصية الله .

● فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يعلمه بذلك ، وكتب إلى يزيد عمارة ابن عقبة وعمرو بن سعد بن أبى وقاص ، فبعث يزيد فعزل النعمان عن الكوفة وضمها إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة وذلك بإشارة سرجون مولى يزيد بن معاوية ، وكان يزيد يستشيريه فقال سرجون : أكنت قابلا من معاوية ما أشار به لو كان حيا؟ قال : نعم ! قال : فاقبل منى فإنه ليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد . فوله إياها .

وكان يزيد يبغض عبيد الله بن زياد وكان يريد أن يعزله عن البصرة ، فولاه البصرة والكوفة معا .

الحسين عند مفترق الطرق

غادر الإمام الحسين مدينة جدّه ﷺ إلى بيت الله الحرام حتى لا يجبر على مبايعة يزيد بن معاوية وحتى لا يسبب حرجا لأمر المدينة الذي تلقى أمرا بانتزاع البيعة من الحسين ، ولكنه تورع أن يمد يده بسوء إلى ابن بنت رسول الله ﷺ وقد وجد الحسين نفسه ، ومعه نفر قليل من أبناء الصحابة عند مفترق طريقين : فإما الإذعان لسلطة غاشمة فرضت عليهم بقوة السلاح ، والاعتراف بحاكم فاسد لا تجتمع فيه خصال الحق والكمال ، وإما الخروج إلى مكة لعل الله يجعل لهم فيها مخرجاً . . وربما انفسحت لهم فيها فرصة التفكير الهادئ . . وهل في الهجرة من ملام؟ ألم يهاجر رسول الله من مكة إلى المدينة اتقاء لبطش الطغاة من سادة قريش؟ فلماذا لا يهاجر ابن بنت رسول الله من المدينة إلى مكة اتقاء لبطش الأوغاد من أحفاد عبد شمس! ألم ينهض القرآن بالناس كي يرفضوا الذل والعار والاستضعاف ولو أدى بهم الأمر إلى الهجرة في بلاد الله الواسعة . . . فالمهم أن يأبى الناس الظلم ولا يركنوا إلى الذل ولا يجعلوا من الضعف ذريعة للتهرب من المسئولية ، وإنما عليهم أن يرفعوا لواء المقاومة .

وتحت شعار المقاومة التقت إرادة الحسين مع إرادة الصفوة المباركة من أبناء الصحابة وقد جمعت بينهم أستار الكعبة . .

وتسامع الناس في الأمصار بنبأ خروج الحسين فكان له أعمق الأثر . . ولكن أثره كان كبيرا في الكوفة عش التشيع لأهل البيت ومكمن الثورة والانقضاض على السلطة الأموية . . وتوالت على الحسين رسائل شيعته

في الكوفة يستحثونه على القدوم إليهم ليقود نضالهم ، فبعث إليهم سفيرا على درجة عالية من الكفاءة والثقة هو ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستطلع له الأمر ويمهد له الطريق إلى هذه البقعة التي تمر بالمقاومة وتتشوق إلى الخلاص من مظالم بني أمية . . وكان شأن الحسين في مكة وابن عمه في الكوفة كشأن السيد المسيح وابن خالته يوحنا المعمدان - نبي الله يحيى بن زكريا - وقد سبقه إلى دنيا الناس مبشرا وداعيا . . وجمع بينهما الشبه في البداية والنهاية ، والتف أهل الكوفة حول مسلم بن عقيل يستحثونه على مقدم الحسين . . والتف الناس في مكة حول الحسين وهم بين ناصح شفيق . . ومتربص داهية . . أما المشفقون فقد خافوا على الحسين أن يخذله أهل الكوفة كما خذلوا أباه وأخاه من قبل ، وأن ينصرفوا عنه بعد أن يفتر حماسهم ، ويفل عزمهم ، وأما المتربصون فقد وجدوا في رحيل الحسين إلى العراق فرصة للتخلص من هذا الثائر العنيد حتى يخلص لهم أمر الحجاز، ويخلو لهم الجو لتحقيق أحلامهم في الزعامة .

ما أكثر الروايات التي تحدثنا عن إشفاق المخلصين ، وفي طليعتهم الرجل الصالح عبد الله بن عمر بن الخطاب . . ومنهم أيضا راوية الحديث عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الذي هو من الحسين بمنزلة العم . . فهو ابن عم أبيه وأحد أساطين الدوحة الهاشمية ، والرجل الذي حنكته التجارب والمحن وخاض غمار المعارك إلى جوار ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صراعه العنيف مع معاوية بن أبي سفيان ، وقد رأى بعينه انصراف أهل الكوفة عن أميرهم علي بن أبي طالب ، ورأى بعينه خذلانهم لابنه الحسن وعدوانهم على سرادقه وسرقتهم لمتاعه . . وخشى أن يجرى للحسين ماجرى لأبيه وأخيه . . أما نصائح ابن عمر فقد كانت من منطلق الدين والخوف من الفتنة التي هي ملازمة لعمليات الانقضاض والثورة . . فهو من المدرسة التي تؤثر الصبر على

الحاكم الجائر حتى يهديه الله أو يريح منه الناس ، ولكن الحسين كان قد اتخذ قراره بعد أن وُقِرَ في وجدانه أنه لا مجال لمساومة أو مهادنة مع الحاكم الجديد ، وأن المجابهة مع الطغيان قد أصبحت أمرا محتوما . .

وما أكثر الروايات التي تحدثنا عن تحريض الخبثاء للحسين كي يذهب إلى حتفه في العراق ويخلو لهم طريق الزعامة . يقول أبو الفرج الاصفهاني في كتابه (مقاتل الطالبين) عن عبد الله بن الزبير: ولم يكن شيء أثقل عليه ، من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعا في الوثوب بالحجاز ، وعلم بأن ذلك لا يتم إلا بعد خروج الحسين ، فقال له : على أي شيء عزمتم يا أبا عبد الله ؛ فأخبره برأيه في إتيان الكوفة ، وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل إليه ، فقال له ابن الزبير: فما يجسك ، فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ماتلّومت في شيء . وقوى عزمه ، ثم انصرف .

● لا تخرج :

وقال ابن كثير في (البداية والنهاية) إن عبد الله بن عمر قال للحسين ولعبد الله بن الزبير أثناء انصرافهما من العمرة : أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس ، وتنظران فإن اجتمع الناس عليه فلم تشدّا وإن افترقا عليه كان الذي تريدان .

وأنت ترى من هذا أن ابن عمر كان يضع وحدة الأمة فوق كل اعتبار ، وكان يخشى من افتراق كلمتها وانفصام وحدتها ويرى تأجيل المواجهة إلى مابعد البيعة العامة حيث تعلن الأمة رأيها الجماعي ، فإن قبلت إمارة يزيد ، كان على المعارضين أن يخضعوا لرأي الجماعة ، وإن رفضت لم يكن في الخروج ملام .

وفي رواية أخرى أن ابن عمر قال للحسين : لا تخرج فإن رسول الله ﷺ

● يوم عاشوراء :

وما إن أشرقت شمس السبت المشئوم - العاشر من المحرم - حتى تهيأت الفئتان للقتال ، وأطل الحسين على أعوانه ، وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون رجلا ، وامتطى الحسين فرسه ، وأخذ مصحفا فوضعه بين يديه ، ثم استقبل القوم رافعا يديه ، بينما وقف عمر بن سعد في مواجهته ومن ورائه أربعة آلاف رجل أو يزيدون من جند العراق . . . وتقاربت الفرسان وخيم الصمت على المكان فلا يسمع سوى وجيب القلوب وهى تحفق إشفاقا على هذه الفئة القليلة التى تخوض معركة غير متكافئة ، ورفع الحسين يده فعلم الناس أنه سيتكلم . فتسمرت الخيل . . . وسكنت الألسنة ، وشرأبت الأعناق ، ونادى الحسين : أيها الناس . . . اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم ، فإن قبلتم منى وأنصفتُمونى كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل ، وإن لم تقبلوا منى « فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون » . . « إن وليّ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . . ثم أخذ يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره وشرفه ، لعل القوم يراجعون أنفسهم قبل أن تتلاحم السيوف وتتقاطر الدماء ، فقال : راجعوا أنفسكم . . وحاسبوها ، هل يصلح لكم قتال مثلى !! وأنا ابن بنت نبيكم وليس على وجه الأرض ابن بنت نبيّ غيرى؟ وعلى أبى؟ وجعفر ذو الجناحين عمى وحمزة سيد الشهداء عم أبى؟ وقال لى رسول الله ﷺ ولأخى : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » فإن صدقتُمونى بما أقول فهو الحق ، فوالله ما تعمدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت الكذب . . أما تتقون الله . ! أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى؟

ولم تصب كلمات الحسين شيئا من قلوب أعدائه وقد صدأت . . . وتمكن منها الحقد والغل حتى لم تعد تسمع . . . ولا تعى . . . ولا تحس . . . ولا تشعر . . لو كانت الصخور هى التى تسمع كلمات الحسين لذابت

رقة وحنانا . . ولكنه قلب الإنسان حين يصيبه العفن فيصير أشد قسوة من الصخر . .

وعاد الحسين يعرض على القوم حلا لإنهاء الأزمة قبل أن يستفحل الأمر وتراق الدماء ، قال لهم : أيها الناس . . ذروني أرجع إلى مأمنى من الأرض . . ولكن الاقتراح لم يعجبهم ، لأنهم لا يريدون دون رأسه بديلا . . ولا يريدون له أن يفلت من أيديهم ، فقالوا له وهم يعرفون الجواب مسبقا : وما يمنعك أن تنزل على حكم بنى عمك ؟ يريدون منه أن يعترف بخلافة السكير الرعديد يزيد بن معاوية وأن يشتري حياته بالثمن البخس فيعيش - إن عاش - ذليلا . . فما سمعوا منه إلا أن تلا قول الله مستعيذا « إني عذتُ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » ثم ألقى إليهم بسهمه الأخير فقال : أخبروني . . أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته ؟ أو مال لكم أكلته ؟ أو بقصاصة من جراحة ؟ إنه يخاطبهم بلغة الشرع . . ويسألهم : هل قتلتم لكم أحدا فتريدون منى دمه ؟ أو سرقتم منكم مالا . . أو جرحتم لكم شخصا فيحق على القصاص ؟

● الخونة :

كل هذا والقوم صامتون . . لا يتكلمون . . ولا يردون عليه . . فهم لا يريدون حوارا . . ولكن يريدون دماء . . لقد جاءوا من الكوفة ليعودوا إلى ابن زياد برأس الحسين . . فقيم الكلام « !! » وتلفت الحسين إلى صفوف أعدائه فلمح فيهم أشخاصا من الذين قد بعثوا إليه برسائل تتفجر حماسا ويطلبون منه القدوم . . ما لهم الآن قد انتقلوا إلى الجانب الآخر ، ما لهم قد تنكروا لوعودهم ومبادئهم ، أى قوة - بل أى ضعف - يتتاب النفس البشرية فيجعلها تتقل من صفوف الخير والفضيلة وتنضوى تحت لواء الرذيلة والفساد ؟ هل هى المنفعة ؟ هل هو الخوف ؟ هل هو اليأس من

انتصار الحق على الباطل فيلقى الإنسان بنفسه في الهاوية كما يفعل
المنتحرون؟؟

نادى الحسين على هؤلاء الذين استقدموه ثم خدعوه: يا شبيث بن
ربعي، يا حجاج بن ابجر، يا قيس بن الأشعث، يا زيد بن الحارث...
ألم تكتبوا إلى أنه قد أينعت الثمار، واخضر الجنب، فأقدم علينا فإنك إنما
تقدم على جند مجندة؟؟

ثم قال: يا أيها الناس، إن قد كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم...
وهنا تكلم أحد هؤلاء الخونة المخادعين فقال: ألا تنزل على حكم بني
عمك فإنهم لن يؤذوك، ولا ترى منهم إلا ما تحب؟ فقال له الحسين: لا
والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لهم إقرار العبيد «!!».

بالعظمة الإنسان حين تفتح له طاقة الإفلات من الموت فيسدها في
كبرياء لأنه يشم منها ريح الذل، فما اتعسها حياة يعيشها الكريم تحت
رحمة غاصبيه، وما أهونها حياة يشتريها العظيم بكرامته، وما أهون الموت
تحت ظلال السيوف.

لقد انتهى زمن الحوار. ولم يبق إلا أن تتكلم السيوف... ولكن قبل
أن يؤذن المؤذن بالقتال، وقع مالم يكن في الحسبان... فهاهو أمير المقدمة
في جيش ابن زياد يتقدم بفرسه من جيش الحسين ليعلن اعتذاره
وانضمامه إلى صف الحسين، إنه الحر بن يزيد الذي تفاعلت في نفسه
كلمات الحسين فتحركت شجونه، وشعر بضميره يؤنبه وهو يرى التعنت
والصلف والغرور يتجلى في صفوف ابن زياد، ويرى الحسين يعرض
عليهم العودة من حيث أتى فيأبون إلا إذلاله، فيعتذر الحر إلى الحسين
من تعسف قومه ويقول: لو أعلم أنهم على هذه النية لسرت معك إلى
زيد، ويقبل منه الحسين العذر، ويلتفت الرجل إلى عمر بن سعد قائد
جيش ابن زياد مخاطباً إياه: ويحكم ألا تقبلون من ابن بنت رسول الله ﷺ

ما يعرضه عليكم . . . ويسمع الحر بن يزيد همهمات أصحابه وهم يلومونه على انضمامه إلى صف الحسين، فيقول لهم: والله إنى أخير نفسى بين الجنة والنار، والله لا اختار على الجنة غيرها، ولو قُطعت وحُرِّقت . . . ثم قال: يا أهل الكوفة، لأمكم الهبل «!!» أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عَدَوْتُم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه إلى بلاد الله العريضة الوسيعة التى لا يمنع فيها الكلب والخنزير، وحُلْتُم بينه وبين الماء الفرات الجارى الذى يشرب منه الكلب والخنزير، وقد صرعهم العطش؟ بش ما خَلَفْتُم محمداً فى ذريته، لاسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه . . .

● أول سهم :

وكانت خطبة الحر بن يزيد آخر الكلمات قبل أن يتكلم السلاح . . . وتقدم عمر بن سعد وقد شمر عن ساعده ورمى بسهم وقال : اشهدوا أنى أول من رمى القوم!! وكأنها خاف ابن سعد أن يشى به عيون ابن زياد بأنه تخاذل عن قتل الحسين، فأراد أن يشهد الجميع على إقدامه «!!» وبرز من خلفه فارسان يصيحان: هل من مبارز؟؟ فخرج لهما من صفوف الحسين فارس مقدم هو عبد الله بن عمر فَجَنَدَ لهما بضربة من سيفه، وأصابته ضربة أطارت أصابع يسراه.

ودارت رحى المعركة . . . أو قل المذبحة . . . فهى أدق وأصلح، وقضى الفريقان سحابة النهار فى المبارزة، وكان النصر حليف أصحاب الحسين لقوة بأسهم، ولكونهم مستميتين لا عاصم لهم إلا سيوفهم، وانتقل جند ابن زياد من المبارزة إلى التلاحم، وسقط مسلم بن عوسجة فكان أول من قتل من أصحاب الحسين، فمشى إليه الإمام وترحم عليه وهو يلفظ

النفس الأخير، وقال له حبيب بن مطهر: أبشر بالجنة، فقال مسلم بصوت خفيض: بشرك الله بالخير، ثم قال له حبيب: لولا أنى أعلم أنى على إثرك لاحقك، لكنت أقضى ماتوصى به، فقال له مسلم: أوصيك بهذا - وأشار إلى الحسين - إلى أن تموت دونه .

واشتدت حمية القتال ، وحمل قائد الميسرة شمر بن ذى الجوشن - أخس وأحققر من عرفت البشرية - على الحسين فدافعت عنه الفرسان دفاعا عظيما ، وكافحوا دونه مكافحة بليغة ، حتى تساقطوا جميعا واحدا إثر واحد ، وشهيدا بعد شهيد . وخلا الجو لإبليس ليقضى وطره ، أجل قاد إبليس كتيبة الإعدام فى صورة الأبرص الملعون شمر بن ذى الجوشن فحمل حملة على أهل بيت الحسين فقتل الصبية حتى لم يبق منهم سوى ابنه العليل على زين العابدين وقد احتمته عمته زينب بكل جسدها فارتاع القوم ونأوا عنه ، ثم إن شمر بن ذى الجوشن صاح فى شياطينه وهو يشير إلى الحسين وقد أعياه القتال فجلس على باب فسطاطه . ويحكم . . ما تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم!! فقال لهم الحسين: ويلكم . . إن لم يكن دين وكتتم لانتخافون يوم المعاد فكونوا فى دنياكم أحرارا وذوى أحساب . . امنعوا رحلى وأهلى من طغاتكم وجهالكم . ولكن المجرمين أحاطوا به من كل جانب ، فانتضى الحسين سيفه وأخذ يجول فيهم يمينا وشمالا وهم يتنافرون عنه كما تتنافر الكلاب من الأسد ، وخرجت زينب من خبائها وهى تصيح فى عمر بن سعد : يا عمر . . أرضيت ان يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر؟ فما كان منه إلا تساقطت الدموع من عينيه حتى خضبت لحيته ، ولكنه لم يحرك ساكنا وأشاح بوجهه عنها ، وعندئذ هجم الملعون زرعة بن شريك التميمى بسيفه فضرب الحسين على كتفه اليسرى ومزق عاتقه ، ثم انصرفوا والحسين ينوء ويكبو بذراعه الجريحة . . ثم جاء إليه الملعون سنان بن أبى عمرو بن أنس النخعى فطعنه برمح فوق فتزل الجزار وذبح الحسين وحز

رأسه ودفع بها إلى خولى بن يزيد . .

وهنا سكنت الريح . . وخشعت الأصوات . . وانفضت المعركة بعد
أن تحقق الغرض منها . . وعاد الجزارون إلى سيدهم في الكوفة وفي يدهم
رأس الحسين . . أما جسده فقد وجدوا به ثلاثا وثلاثين طعنة ، ولم يغادر
القوم أرض كربلاء حتى وطئوا بخيولهم جسم الحسين حتى ألصقوه
بالأرض .

استشهاد أم انتحار

هل أخطأ الحسين أم أصاب حين خرج من بيته وحيدا أعزل ليواجه دولة بجيشها وخيلها وجبروتها؟ هل أخطأ حين أغلق أذنيه عن نصيح الناصحين له بعدم الخروج إلى العراق؟ هل أخطأ لأنه لم يحفل بالقوة القاهرة التي لا تقاس إليها قوة الصحبة المحدودة من أهل بيته والنفر القليل من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؟ هل أخطأ إذ لم يخضع حركته لموازين القوة المادية وحسابات الكر والفر والمكسب والخسارة. . . وما عسى أن يلقاه من بطش الجبارين المتعطشين إلى الدماء؟

هذه القضية كانت ولم تزل - مثار جدل بين المؤرخين والباحثين في طبيعة النفس الإنسانية حين تتغلب عليها فكرة الاستشهاد فتستهين بالموت وتهزأ بالحديد والنار وتسخر من الجبابرة، ولاتعباً بالنتيجة العاجلة للمعركة؛ لأن الشهداء لا يتعجلون الثمن وإنما يجنون ثمار جهادهم في الأمد البعيد، ولكن من المؤرخين من يرى أن الحسين قد جانبه الصواب حين خرج بالطريقة التي خرج بها، ويرى أن ما فعله الحسين كان انتحارا وليس استشهادا. . . أما البعض الآخر فيرى في خروج الحسين على طغيان دولة الأمويين مثالا أعلى في البطولة والفداء. . .

فالبطل حين ينوى التمرد على الظلم والفساد لا يحسب حسابا للقوة التي سيواجهها. وإنما عليه أن يقول كلمته ويرفع لواء المقاومة أيا كانت نتيجة المواجهة، لقد خرج ليستشهد. . . ولم يخرج ليساوم أو يفاوض أو

يقامر على المبادئ النبيلة التي امن بها . . . ولقد اختلفت الآراء حول خروج الحسين ، وتباينت هذه الآراء بين الحكم على الحسين بالصواب أو الخطأ . . . ولست في هذا الحيز المحدود أملك القدرة على أن أعرض عليك آراء هؤلاء وأولئك ، ولكنى سأكتفى بأن أعرض عليك نموذجا لآراء كل من الفريقين : المؤيدين والمعارضين وسأترك لك حرية الاقتناع بأى منهما . . .

وسوف أبدأ برأى المعارضين ويمثلهم أستاذ للتاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية القديمة هو المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك صاحب المؤلفات القيمة فى التشريع الإسلامى وأصول الفقه ، وقد ألقى سلسلة من المحاضرات على طلاب الجامعة المصرية فى تاريخ الأمم الإسلامية وجمعتها إدارة الجامعة فى مجلدين كبيرين ، وقد تعرض الخضرى لحركة الحسين فى محاضراته . وبعد أن انتهى من سرد الأحداث التى انتهت بكارثة كربلاء قال :

« بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة (كربلاء) التى أثارها عدم الأناة والتبصر فى العواقب ، فإن الحسين رمى بقول مشيريه جميعا عرض الحائط ، وظن بأهل العراق خيرا ، وهم أصحاب أبيه ، فقد كان أبوه خيرا منه وأكثر عند الناس وجاهة ، وكانت له بيعة فى الأعناق ، ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى فى آخر حياته الخلاص منهم ، أما الحسين فلم تكن له بيعة ، وكان فى العراق عماله وأمرأؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر ، فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد ، وانظروا كيف تألف الجيش الذى حاربه ! هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة على بن أبى طالب ! وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيما فى خروجه هذا الذى جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا ، وقد أكثر الناس من الكتابة فى هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران فى القلوب فيشتد تباعدها . . .

ثم ينتهى الشيخ الخضرى إلى التبسيط الشديد فى تفسير دوافع ثورة الحسين فيقول : غاية ما فى الأمر أن الرجل - الحسين - طلب أمرا لم يتهيا له ولم يعد له عدته ، فحيل بينه وبين ما يشتهى وقتل دونه ، وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من يُشعح أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجا .

ثم يختتم الخضرى بك تحليله لهذه الأحداث الهائلة بإحالتها جميعا إلى الخالق عز شأنه ليحكم فيها بما يراه ، فكان شأنه فى ذلك شأن «المرجئة» الذين أراحوا أنفسهم من الحكم على الباغى وأرجئوا الحكم كله إلى يوم النشور ، يقول الشيخ الخضرى : لقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على ما فعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة : وهى أنه لا ينبغى لمن يريد عظام الأمور أن يسير إليها بغير عدنها الطبيعية ، فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك ، كما أنه لابد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور ظاهر لا يُحتمل ، وعسف شديد ينوء الناس بحمله ، أما الحسين فقد خالف على يزيد وقد بايعه الناس ، ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف . . . » .

● ظلم الحسين :

هذا رأى الذى عرضته عليك يعبر تعبيرا دقيقا عن مدرسة الفقهاء التى ترى أن القعود خير من الخروج ، وأن السكوت على الحاكم الظالم أرحم من الانتفاض عليه ، وأن الخروج على الجور لا يصح إلا إذا توفرت له ضمانات النجاح ، ولابد أن يكون الظلم بيّنا ظاهرا ينوء الناس بحمله (!!) .

وأنت ترى من كل ذلك ما تحمله هذه الآراء من خطر على كرامة الأمة وروحها المعنوية ، فضلا عما فيها من تحامل وتجن على الحسين ، فالإمام الشهيد لم يكن سببا فى فرقة المسلمين كما يظن الشيخ الخضرى ، والحسين

برىء من هذه النهمة براءة يعرفها قراء التاريخ ، فالانقسام بين المسلمين حدث إبان خلافة عثمان رضى الله عنه وتطور تطورا دراميا أثناء خلافة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومن الظلم أن يزعم زاعم أن حركة الحسين كانت سببا في زعزعة ألفة الأمة الإسلامية « إلى يومنا هذا » . . وإنما تعود هذه الزعزعة إلى عشرات ومئات العوامل التي صنعتها أحداث وظروف لا صلة للحسين بها . ومن الغريب أن يتحامل الشيخ الخضري على المؤرخين والكتاب الذين يناصرون حركة الحسين باعتبارها حركة مشروعة في عرف الدين والسياسة والأخلاق . ويصف الشيخ هؤلاء المناصرين بأنهم يريدون إشعال الفتن وزيادة نار العداوة تأجيجا ، وهو نفس المنطق الذي يردده حكام العصر حين يصفون كل حركة معارضة بأنها هدامة وأنها تسعى إلى تقطيع أواصر الأمة والإخلال بالأمن . . . وكان ما تسمعه في بلاغات وزارة الداخلية صدى لهذا الرأي الذي تردد في مدرجات الجامعة المصرية القديمة في أوائل هذا القرن . .

على أي حال . . لن أمضى طويلا في مناقشة هذه الآراء التي أدانت حركة الحسين ، وسأترك الرد لأصحاب الرأي الآخر الذين يرون في خروج الحسين أمرا محتوما حتى تظل ينابيع الخير والشرف والنبيل والسمو تفيض بعطائها على المجتمعات الإنسانية ، وحتى تظل النفس الإنسانية على ثقة من انتصار الخير واندحار الشر ولن يتم ذلك إلا على دماء الشهداء . . . فالتقدم الإنساني رهين بظهور هذه الفئة من الرواد والأبطال والشهداء . . . وبدونهم تتحول المجتمعات البشرية إلى غابات تترج فيها الوحوش الكاسرة . . وينمحي فيها صوت الحق والعدل والحرية .

● أبو الشهداء :

ووجهة النظر التي تناصر حركة الحسين يمثلها خير تمثيل عملاق الفكر الإسلامى عباس محمود العقاد . . وإليك شهادته كما سجلها في كتابه « الحسين أبو الشهداء » :

« خروج الحسين من مكة إلى العراق حركة لايسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ في باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية . . لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الصواب فيها - إن أصابت - من نحو واحد ينحصر القول فيه ، ولا يأتى الخطأ فيها - إن أخطأت من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه ، وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليك أن يذهب إلى النقيضين» . .

«هى حركة لا يأتى بها إلا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق . . هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن ندينهم بما يعمل به رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة . . لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال . .

« وهى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساومى التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره . . فإن قبلته الدنيا قبلها ، وإن لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى إليه .

«هى حركة لا تقاس إذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات ، ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان . . ولا ننسى أن السنين الستين التى انقضت بعد حركة الحسين قد انقضت فى ظل دولة تقوم على تخطيطه فى كل شىء ، وتصويب مقاتليه فى كل شىء . فالقول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة ،

والتماس العذر له معناه إلقاء الذنب عليها ، وليس بخاف على أحد كيف يُنسى الحياء وتُبتذل القرائح أحيانا في تنزيه السلطان القائم ، ونأثيم السلطان الزاهب ، فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه إذن بالأمر الذى يرجع فيه إلى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفاً غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء» .

وأنت ترى من هذا أن العقد يرفض أن يحكم على حركة الحسين بمقياس المكسب أو الخسارة الذى يلجأ إليه المغامرون وأصحاب الصفقات قبل الإقدام على مغامرة أو صفقة ، وإنما يستخدم العقد منهجه التقليدى فى تفسير الأحداث على ضوء البواعث النفسية للبطل حيث يفعل مايفعل استجابة لنوازع دفينة فى نفسه . ودون اعتبار للظروف الخارجية التى تحيط به . ويضيف العقد إلى هذا الباعث النفسى عاملاً آخر هو النتائج التى أسفرت عنها حركة الحسين ليحكم - فى النهاية - بصواب الحسين حين خرج من مكة إلى العراق ليواجه دولة الظلم والجبروت . . وإليك أسانيد العقد فى هذا الحكم :

« نعم . . أصاب الحسين إذا نظرنا إلى الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة . .

وأنت حين تسأل عن هذه البواعث النفسية التى قامت بنفس الحسين حين أزمع الخروج على يزيد بن معاوية يجيبك العقد قائلاً : هى بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ، ولا تدعو مثله إلى صنيع غير ذلك الصنيع ، وخير لبنى الإنسان ألف مرة أن يكون فيها خلق كخلق الحسين الذى أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الإنسان على ذلك الخلق الذى يرضى به يزيد .

حکام متألّهون

إذا دخل الاستبداد من الباب، هربت الحرية والكرامة والأمن وحقوق الإنسان من النافذة، لأن الاستبداد لا يدخل وحده، وإنما يصحبه الإرهاب والبطش والترويع، عندئذ يتحول الناس إلى كائنات هلامية، حسبهم من الحياة أن يعيشوها في سكون، وأن ينتهى بقاؤهم فيها دون أن يمسه طائف من العذاب. إنها حياة أشبه بحياة القطيع ليس فيها من النشاط الإنسانى سوى إشباع الغرائز، أما إشباع العقل وغذاء الروح والارتقاء بالتفكير. فكلها أنشطة تخضع لسيطرة المستبد الذى يسعده أن تتحول الرعية إلى إمعات معدومة الشخصية، تميل حيث تميل الريح. . . ولا تسبح أبدا ضد التيار .

عبر أمير الشعراء: أحمد شوقى عن حالة الانهيار النفسى التى تصيب الإنسان تحت ضغط الخوف فى مسرحيته الشهيرة (مجنون ليلى) فى اعتراف أحد أنصار الإمام الحسين بأنه يخفى حبه للحسين خوفا من الإرهاب الأموى فقال :

إذا الفتنة اضطرمت فى البلاد ورمت النجاة فكن إمعة

أحب الحسين ولكننا لسانى عليه وقلبى معه

حبست لسانى عن مدحه حذار أمية أن تقطعه

وكانت (أمية) تقطع الألسنة إذا باحت بذكر على بن أبى طالب

وأبنائه ، رغم أن علياً وأبناءه خسروا معركة الحكم ، وقفز معاوية وأنصاره على مقدرات الدولة الإسلامية وجعلها ملكاً عضوداً وراثياً في أبنائه خلافاً لمبدأ الشورى الذى قرره الإسلام ، ورغم أنه كسب المعركة وأصبح السيد الفرد الذى لا يشاركه فى حكمه أحد ، إلا أنه كان يخشى رأى العام ، ويعلم جيداً أن الناس لن ينسوا فضائل على وأبنائه ، فأمر الخطباء أن يسبوا علياً على المنابر ، فكان الخطيب بعد أن يفرغ من خطبة الجمعة يدعو المصلين إلى سب (على) كرم الله وجهه ، فكانت ألسنتهم تقول (آمين) بينما قلوبهم تدعو إلى (على) بالرحمة والرضوان جزاء ما جاهد وأبلى فى سبيل الإسلام .

ولم يكن كل الناس يسايرون حكام بنى أمية فى خطتهم الخبيثة لتلطيف سمعة (على) وأبنائه ، صحيح أنه كان هناك شعراء منافقون ، وخطباء مرتشون يمدحون ملوك بنى أمية . ولكن كان إلى جانبهم أحرار بواسل رفضوا الانحراف بنظام الحكم من الشورية الديمقراطية إلى الاستبدادية الشمولية ، لنذكر على سبيل المثال حجر بن عدى وأصحابه الخمسة الذين وقفوا فى العراق وقفة الأبطال ، وأبت عليهم نفوسهم الكريمة أن يعلنوا كلمة التأييد لما فعله معاوية ، فما كان من والى العراق إلا أن بعث بهم مكبلين فى الأغلال إلى الشام ليحكم عليهم معاوية بالموت بلا محاكمة .

● الأحنف :

ولانسى الأحنف بن قيس سيد بنى تميم ، الذى كان إذا غضب ، غضب لغضبه مائة ألف من قومه . . لا يدرون لما غضب (!!) وكان يجمع خصال السيادة والشرف من حنكة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان ، وذلاقة اللسان ، وقد شهد (صفين) إلى جانب على بن أبى طالب ، ولكن تطورات السياسة دفعته

بعد ذلك إلى الاعتراف بالنظام الجديد الذى أنشأه معاوية ، وعندما سأله معاوية عن رأيه فى ابنه يزيد وهو يستطلع آراء الصفوة فى استخلافه لم يتردد فى أن يصارح معاوية بما يعلمه عن يزيد . وقال له : « يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلايته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعمله لله رضا ولهذه الأمة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وأنت ترى فى هذا الكلام مجاهرة بالرأى فى رفض استخلاف يزيد ، وتمضى الأيام . . وتستقر الأمور لمعاوية ، ولا ينسى أن الأحنف كان يقف فى الجبهة المعادية أثناء موقعة صفين ، وفى نفس الوقت يعلم أن الأحنف لديه من الشجاعة والجرأة ما يخرج معاوية إذا خرج عن حدود اللياقة فى معاملة الأحنف ، وبينما كان معاوية والأحنف يتسامران أراد معاوية أن يسترجع الماضى لعله يحظى من الأحنف بكلمة اعتذار عما كان منه يوم صفين ، فقال له حذرا : « والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزاة فى قلبى . . » فما كان من الأحنف إلا أن انتفض قائلا : « والله يامعاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا . . وإن السيوف التى حاربناك بها لفى أغمارها . . وإن تدن من الحرب فترا ندن شبرا . . وإن تمش إليها . . نهول إليها . . » فما كان من معاوية إلا أن تراجع . .

وذات مرة طلب معاوية من الأحنف أن يصعد المنبر ليسب علياً . وتمنع الأحنف ، وتشبث معاوية . . فقال الأحنف : إذن أصعد لأقول ما يمليه على ضميرى لا أخرج عنه . . فسأله معاوية : وماذا ستقول : قال : سأقول أيها الناس . . ألا إن علياً ومعاوية قد اختلفا . . وقد طلب منى أمير المؤمنين أن ألعن علياً . . فalcنوه . . وعليه لعنة الله والناس والملائكة . . فقال معاوية : ولكنك لم تفصح ؟ قال الأحنف : والله لا أزيد ولا أنقص . . فسكت معاوية .

● ضمير عمر :

وقد ظلت جريمة سب (على) على المنابر طوال عهد بنى أمية ، ولم تتوقف إلا في عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز . . ويبدو أن هذه الجريمة كانت تؤرق ضميره منذ صباه . . ويقول في ذلك : « كان أبى يمر في خطبته يهزها هزا . . حتى إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين على تتعنع (أى تعثر وتلجلج) وتحدثت إلى أبى في ذلك فقال لى : أو أدركت ذلك منى يابنى ؟ ! اعلم يابنى أن العوام لو عرفوا من على بن أبى طالب ما نعرفه ، لتفرقوا عنا إلى ولده » .

وتفهم من قول عبد العزيز بن مروان إلى ابنه عمر أن حكام بنى أمية كانوا يدركون جيدا أن الرعية تميل بهواها نحو على ، وأنها تشعر بأن أمية اغتصبت الحكم اغتصابا . . ولما تولى عمر الخلافة ألغى السب وطلب من الخطباء أن يجعلوا مكانه الآية الكريمة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ولا تزال هذه السنة الحميدة جارية حتى يومنا هذا . .

وقد امتن الهاشميون لعمر بن عبد العزيز هذا الموقف الكريم ، وذكره الشريف الرضى في قصيدة قال فيها متوجها بها إلى حيث يرقد عمر في دير ابن سمعان :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فتى من أمية تبكيك
أنت أنقذتنا من السب والشتم فلو أمكن الجزاء جزيتك
غير أنى أقول إنك قد طببت ولم يطب ولم يزك بيتك
دير سمعان لا عدتك العوادي خير ميت من آل مروان ميتك

● احتقار الرعية :

ولو تابعت خطب العرش التى كان يخطبها حكام بنى أمية منذ معاوية بن أبى سفيان فسوف تلمس فيها هذه النعرة الاستعلائية التى تحتقر الرعية ولا ترى لها رأياً أو حقاً فى تولية الحاكم . . . وعندما ذهب معاوية إلى مدينة الرسول عام ٤١ هـ بعد أن امتلك الأمر، صعد المنبر وخاطب الناس بهذه الكلمات التى تنم عن البغض الكامن فى نفسه تجاه الرعية، لأنه يعلم أنها تبادله بغضاً ببغض، وبأنه ماتولى الخلافة إلا على كره منهم، ثم يكشف لهم عن عزمه على مجالدتهم بالسيف حيناً . . . وبالدهاء حيناً . . . ثم يحذرهم من الخروج عليه، وإنه لن يحفل بالأقاويل والشتائم التى يطلقونها عليه شفاء لما فى نفوسهم نحوه . . . وإليك نص الخطبة:

« أما بعد: فأنى والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم، ولامسرة بولايتى، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة، ولقد رضت (يعنى مرنت) لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة (يعنى الصديق) وأردتها على عمل (عمر) فنفرت من ذلك نفورا شديدا، وأردتها على سينات (يعنى سنوات) عثمان، فأبت على، فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة: مواكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدونى خيركم، فإنى خير لكم ولاية، والله لا أحمل السيف على من لاسيف له، وإن لم يكن إلا مايستشفى به القائل بلسانه، فلقد جعلت ذلك له دبر أذنى، وتحت قدمى، وإن لم تجدونى أقوم بحققكم كله فاقبلوا منى بعضه، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه، فإن السيل إذا جاد يثرى، وإذا قل أغنى. وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة » .

وقد سار كل حكام بنى أمية - باستثناء عمر بن عبد العزيز - على هذا المنوال فى التهديد والوعيد والشتم وسب الرعية، حتى أن عتبة بن أبى سفيان عندما جاء إلى مصر ليتولى حكمها سنة ٤٣ هـ كانت خطبته قطعة

من السباب، فوصم المصريين بأنهم الأم الناس، وأن فسادهم يستشري ولا علاج لهم إلا تقطيع السياط على ظهورهم، فإذا نجح السوط اكتفى به، وإلا فلا مفر من السيف، ثم يجنح إلى توبيخ المصريين لأنهم لم يعوا المواعظ، ويهددهم بأنه لن يتردد في عقابهم بأفزع وسائل الانتقام.. وإليك نص الخطبة:

« يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين، إنى قلمت أظفارى عنكم ليلين قسى لكم، وسألتكم صلاحكم إذا كان فسادكم باقيا عليكم، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على السلطان، والتنقص للسلف، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت أدواءكم، وإلا فإن السيف من ورائكم فكم من حكمة لم تعها قلوبكم، ومن موعظة منا صمت عنها أذانكم، ولست أبخل بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية، ولا أويسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى».

ويبدو أن عتبة بن أبى سفيان كان يطوى بين جوانحه بغضا شديدا لأهل مصر، فتراه يكرر فى خطبة أخرى نفس عبارات التهديد والترويع:

« يا أهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا، فإن لله فيكم ذبيحا لعثمان، لاتصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق، بإحياء الفتنة وإماتة السنن، فأطاكم الله وطأة لا رمق معها، حتى تنكروا منى ما كنتم تعرفون، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون».

● البتراء :

ومن أشهر خطب التهديد والترويع خطبة زياد بن أبيه المعروفة بالبترا لأنه لم يستهلها بحمد الله على النسق الدينى المعمول به منذ ظهور الإسلام. ويقول الدكتور أحمد الحوفى فى كتابه (أدب السياسة فى العصر الأموى) بأن الباعث على ترك الحمد فى خطب زياد ورسائله، أنه لم يكر من الذين أشربت قلوبهم الدين، وامتزج بنفوسهم القرآن، ولم يكر

حريصا على أن يقتفى ماسنه المسلمون من قبله في الافتتاح بها يشعر بالانقياد لله . على أنه لا يمنع من ذلك أن الشذوذ في هذا الافتتاح المفاجئ يوحى للسامعين بالصرامة والغلظة ويضاعف رهبتهم من حاكمهم الجديد، الذى لا يتورع عن التنكيل والتقتيل . .

ولأن الخطبة (البتراء) طويلة فسوف أجتزئ لك منها هذه الفقرات التى تبث الخوف والفرع في نفوس السامعين :

« حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدمًا وإحراقًا . . وإنى أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لى قناتكم . .

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوما غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا على قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألستكم أكفف يدي وأذاى لا يظهر من أحد منكم خلاف ماعليه عامتكم إلا ضربت عنقه .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا - فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيثنا بمناصحتكم لنا .

وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى . . » .

والتهديدات الفاجرة التى نطق بها جبار بنى أمية زياد ابن أبيه ، تذكرك بالعبارات الساقطة التى كان يفوه بها جبار السجن الحربى ، حمزة البسيونى ، عندما كان يهدد أسراه بأنه سيهدم السجن الحربى على رؤوسهم ولن ينقذهم من برائنه ملائكة الرحمن ، ولو هبطوا من السماء

فسوف يضعهم في الزنازين . . بل قال ماهو أفضع وأشنع مما يعف القلم
عن سرده تقديسا واحتراما للذات العلية «!!» .

● أدب الإسلام :

ويعلق الدكتور الحوفي على خطبة زياد بقوله : إنها تنبئ عن اجترأ
على عقوبات لم يسنها الدين ، لأن زيادا - كما سبق القول - لم يكن من
المتدينين ، ولأنه ينطبق مع ما قاله على بن أبي طالب لأنصاره يوم
صفين : إن القوم ليسوا أهل قرآن ولا دين ، فهو ينذر أهل العراق بأنواع
من العقاب غريبة عجيبة ، كأنما هو المشرع ، أو كأنما هو غير مقيد
بأحكام الإسلام ، ذلك أن الإسلام لا يعاقب بالإحراق من حرق دارا كما
توعد زياد ، ولا يجزى بالإغراق من غرق ناسا كما هدد زياد ، ولا يميز دفن
المسلم حيا في القبر الذي نبشه كما أوعد زياد ، ولا ينقب قلب الذي ينقب
جدارا للسرقة مثلما أنذر زياد ، ولا يأخذ السيد بجرم عبده ، ولا البريء
بالمتهم ، ولا يعاقب على الظنة والشك ، وإنما شرع الإسلام عقوبات
معينة لهذه الجرائم وأمثالها ، وحرص على العدالة ودرء العقاب بالشبهة ،
لهذا اعترض على زياد أبو بلال مرداس وقال له : الله سبحانه وتعالى يقول
: « وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وزره وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا
ما سعى » .

ويضيف الدكتور الحوفي : إن في الخطبة البتراء ترفعا على المحكومين
وصبغة استبدادية ، وادعاء سلطة سياسية لا يقرها الإسلام ، فهو يعلن أنه
سيسوسهم بسلطة من الله خوفا بني أمية ، وسيدافع عنهم بأموال الدولة
التي أعطاهم الله إياها ، وهو يعلم والسامعون يعلمون أن الله لم يخول بني
أمية سلطانا ، ويعلم ويعلمون أن الله لم يملك بني أمية أموالا ، وإنما دعا
الإسلام إلى الشورى ، وجعل مال المسلمين للمسلمين ، وما الحاكم إلا
خازن أمين على هذا المال ، وقيم على إنفاقه في وجوه الخير ونفع الشعب .

ابن جلال .. قاهر العراق

منذ الصدر الأول للإسلام والعراق يشتعل بالفتن والحروب ، لأسباب ترجع إلى تركيبته السكانية التى تفتقد الانسجام ، وتتميز بالتنوع ، ففيه العرب الذين انتشروا فيه بعد الفتح ، وفيه الفرس سكانه الأقدمون ، وفيه السريان النصارى ، واليهود ، والآشوريون والصابئة وغيرهم ، ولكل طائفة دينها ومذهبها ومدارسها استنادا إلى المظلة الإسلامية التى تمنع الإكراه فى الدين ، وبهذه الأعراق المتنوعة ، والمذاهب المتنافرة ، صار العراق متحفا بشريا وتاريخيا يضم أشتاتا من الأجناس والأديان والفلسفات والعقائد ، تنافست فيما بينها لإثبات ذاتها ، ولم يلبث التنافس أن تحول إلى صراع من أجل البقاء مما جعل من العراق مسرحا للفتن والثورات والاضطرابات بصورة لم يكن لها نظير فى غيره من الأقاليم الإسلامية .

وجاءت الفتنة الأولى ، بعد مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، فاجتذب العراق كل أطراف الصراع ، فقد ذهبت إلى البصرة عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير حيث أعلنوا الانشقاق على الخليفة الجديد على بن أبى طالب الذى سايرهم فى الانتقال إلى العراق ، ونقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة ، وكانت بين البصرة والكوفة واقعة الجمل ، ثم كان الصراع الدامى بين أهل العراق تحت رآيه على ، وأهل الشام تحت لواء معاوية . وقد انتهى الصراع باغتيال الإمام وفوز معاوية وقيام الدولة الأموية ، ورغم ذلك بقى العراق شوكة فى جنب معاوية ، منه تنطلق

أصوات الفتنة ، وفيه تتخمر حركات الثورة ، وبقيت هذه الحركات في حالة كمون طوال حياة معاوية بسبب دهاء سياسته وقوة شكيمة ، حتى إذا هلك كشفت قوى المعارضة عن وجهها ، وخلع أهل العراق بيعة يزيد ، وبعثوا إلى الحسين يحثونه على الذهاب إليهم ، ولكنهم خذلوه وخانوه ، وكانت النهاية المعروفة في كربلاء ، وشعر أهل العراق بالندم على غدرهم بالحسين فظهرت حركة (التوابين) لتظهر الندم على خيانة الحسين وتطلب الثأر لدمه ، ثم كانت حركة (المختار) الثقفى للوفاء بنفس الغرض ، وتصفية المجرمين الذين قتلوا الحسين ، ولكنه انحرف ، ودخل بدعوته في متاهات وخزعבלات عقائدية حتى لقي حتفه على يد مصعب بن الزبير ، وكان مصعب قد بسط سلطان دولة الزبيريين على إقليم البصرة ، ولكن العراقيين خانوه ، وكاتبوا الخليفة عبد الملك بن مروان يطلبون منه القدوم ، فسار عبد الملك إلى العراق على رأس جيش كبير ، والتقاء جيش مصعب بن الزبير ، وكان النصر له في البداية إلى أن دارت عليه الدائرة ، ومازال مصعب يقاتل حتى قتل . . . وبعدها واصل الخوارج الثورة على دولة بنى أمية .

أراد عبد الملك بن مروان أن يؤدب العراقيين تأديبا شديدا ، فرماهم بالحجاج لعلمه بأنه الرجل المناسب في المكان المناسب ، وأنه كفيل بفرض الإرهاب والعنف مثلما فعل في مكة مع عبد الله بن الزبير . . . ولأنه من أجراً الولاة إسرافا في سفك الدماء ، ولأنه قادر على بث الفرع والرعب في نفوس الناس ، حتى ليذكره أحدهم في الليل ، فما يأتيه النوم حتى يصبح ، وإذا كانت الكوفة قد شهدت نماذج من هؤلاء الطغاة ، إلا أنها لم تشهد واليا عليها في مثل صرامة الحجاج وعنفه وطغيانه ، يغضب في مجلسه فلا يبقى أحد في المجلس إلا ركبته الهموم ، وارتعدت فرائصه ، وتحسس رأسه حتى يتأكد أنها لا تزال قائمة .

مضى الحجاج إلى العراق سنة ٧٥هـ وهو يضم في نفسه الشر ،

ويعتزم التنكيل بأهله تنكيلا شديدا ، وسلك في ذلك سبيلا لم يسبقه فيه أحد وهو زرع الهلع في نفوس الناس منذ لحظة اللقاء الأول حتى يعرف الجميع أن عهدا جديدا قد بدأ ، وأن هذا العهد الجديد ليس فيه مكان للرحمة أو الرأفة أو التهاون ، ولكنه سيكون حافلا بالقسوة والغلظة ، مترعا بالدماء ، فمضى لتوه إلى مسجد الكوفة وقد غص بالناس لرؤية الوالى الجديد ، وكلهم شغف للقاءه ، ولو علموا ما وراء هذا اللقاء لاحجموا عنه ولزموا بيوتهم إيثارا للسلامة .

ارتقى الحجاج المنبر وقد غطى رأسه بعمامة كبيرة أخفت ملامح وجهه ، ومكث الحجاج جالسا على المنبر وقد دس رأسه بين كفيه حتى خيل إلى الناس أنه راح في سبات وهم بعضهم أن يقذفه بالحصي ليصحو ، وتعالى من بعض أرجاء المسجد همهمات الهزء والسخرية من هذا الرجل الغريب الأطوار ، وساد القوم شعور بالدهشة ، حتى إذا أحس الحجاج أنه بلغ المراد فى إثارة فضول الناس ، انتفض من مكمنه كما ينتفض الفهد من رقاده ، فإذا بالجردان تفر من حوله مذعورة ، وقف الحجاج منتصبا وسدد إلى القوم نظرات تقدح بالشرر ، ثم خلع العمامة حتى بدت ملامح وجهه فانخلعت القلوب من الصدور ، وصاح الحجاج صيحة زلزلت لها جدران المسجد ، وإذا به يقدم نفسه إليهم بهذا البيت من الشعر القديم :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

هل كان الحجاج مخرجاً مسرحياً يعرف أصول الحبكة الدرامية ، ومواقع التأثير فى الجمهور (١٢) .

فالرجل لم يفتتح خطبته بحمد الله كما تقضى أصول الخطابة فى العرف الإسلامى ، وإنما بدأها بهذا البيت الغريب من الشعر الذى يحمل لهجة التهديد الصريح ، وأحاط نفسه بهذه الهالة من الغرابة والغموض حين

غطى وجهه بعمامة ، إحياء لتقليد عربى قديم يقضى بلبس العمامة عند إعلان الحرب وطلب الثأر . فهو يعلن منذ اللحظة الأولى أنه جاء محارباً وطالبا لثأر . وهما هو يخلع العمامة ، ويكشف عن وجهه حتى يعرف الجميع أنه الجبار الذى لا ينام على ثأره . . وأنه القادر على اجتياز ثنايا الجبال ، وطلوع المسالك الصعبة الوعرة التى يتجنبها الضعاف والكسالى . .

وبهت الناس لهذه البداية المفجعة التى تطفح بالتهديد ، وتملكتهم الدهشة حتى انحبست أنفاسهم ولم يعد يسمع إلا صوت هذا الجبار يتوعدهم بالويل والنكال ، ولم يترك لهم الحجاج فرصة لالتقاط الأنفاس ، وإنما عاجلهم بكلمات كانت أشبه بطلقات مدفع رشاش . . .

«يا أهل الكوفة . . إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقق بين العمام واللقى ، إنى والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ، ما يقع لي بالشنان ، ولا يغمر جانبي كتغمار التين ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نشر كنانته بين يديه ، ثم عجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجهنى إليكم ، فإنكم طالما أوضعتكم فى الفتن ، وأضجعتكم فى مراقد الضلال ، وسنتم سنن الغي ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأضربنكم ضرب غرائب الأبل ، فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً ، من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ما أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت . أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة ، وإنى أقسم

بالله، لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . . .» .

وقبل أن أمضى معك في شرح الأبعاد التاريخية لهذه الخطبة النارية، ينبغي أن أشرح لك بعض معانيها الأدبية . . . فالحجاج يصارح أهل العراق - أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق - بحقيقة كونه سفاحا محبا للدماء، شغوبا بقطع الرؤوس، وهو يرى رؤوسهم قد نضجت حتى تستحق القطع، وهو جاهز، ويرى دماءهم تسيل بين العمام واللعى . . . ويريد منهم أن يفهموا أنه ليس بالرجل الذي يخاف من الجعجعة وطول اللسان، وأن ابتلاءهم به تم بعد اختيار دقيق من جانب الخليفة عبد الملك الذي اختبر قواده وفحصهم فحسبوا عمليا فوجد الحجاج أشدهم مرارة وأصلبهم عودا، وأكثرهم قسوة، فرماهم به، ثم يؤنب أهل العراق لأنهم أوغلوا في الفتن، وأسرفوا في الضلال، ولذلك فهو يحذرهم بأنه سينزع جلودهم مثلما تقشر العصا وينزع عنها لحاؤها، ولسوف يضربهم كما تضرب الإبل الهاربة، وإن عليهم أن يسارعوا بالخروج لقتال الخوارج فإذا ضبط متخلفا عن القتال بعد ثلاثة أيام فسيكون جزاؤه قطع الرقبة .

وأنت إذا عدت إلى قراءة الخطبة بعد فهم معانيها فسوف تكتشف أنك بإزاء أديب مفطور على البلاغة والتعبير عن المراد بأقل الكلمات، وقد سبق أن قلت لك إن الحجاج كان أديبا مثلما كان سفاحا، وإن قدرته الأدبية لا تقل عن قدرته الدموية، وإن شهرته بين الأدباء لا تقل عن شهرته بين الطغاة والبغاة، وقد حفظ تاريخ الأدب في العصر الأموي تراث الحجاج من خطب وطرائف ونوادر، وحظى هذا التراث باهتمام نقاد الأدب القدامى والمحدثين .

فالناقد الكبير الدكتور شوقي ضيف يلاحظ أن الحجاج يفتح خطبه بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم، وهو يرى

أن الخطبة التي ألقاها في مسجد الكوفة تزخر بأسلوب تصويري قوى، ويضعه في الذروة بين أهل الخطابة والبيان، ويروى أن الحسن البصري كان يقول عن الحجاج إنه « يعظ عظة الأزارقة، ويبطش بطش الجبارين ». والأزارقة هم تلك الطائفة من الخوارج التي اشتهرت بالفصاحة الخطابية.

● الخوارج :

كان أهل العراق قد عادوا من محنة التحكيم في (دومة الجندل) وقد انصرفوا عن إمامهم علي بن أبي طالب، وخلعوا بيعته، وخرجوا على إمامته، ومن يومها دخلوا التاريخ تحت اسم (الخوارج) ثم اعتزلوا الناس والمجتمع والدولة، ورفضوا دخول الكوفة. وتجمعوا عند ظاهرها في مكان يدعى (حروراء) وأقاموا لأنفسهم إماما للصلاة وإماما للقتال، وألزموا أنفسهم التمسك بحرفية النص القرآني لا يحيدون عنها، وشيئا فشيئا ازدادت عزلتهم. وحكموا على غيرهم بالكفر، ثم حملوا على الناس قتلا وترويعا، ونشروا الإرهاب في النفوس، وتآمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص. . ولم ينجحوا إلا في قتل الإمام، وأفلت الآخرون، وبعدها تحول الخوارج إلى فرق وجماعات تتنافر في الفكر، وتتفق في العنف، ورفعوا لواء الثورة على حكم بني أمية، فلم يهادنوا أو يساوموا على مبادئهم، وأعلنوها حربا لا هوادة فيها على الدولة، وجعلوا من العراق قاعدة لانتفاضاتهم، وأرسلت الدولة إليهم الجيوش فكانوا يهزمون حيناً وينهزمون حيناً آخر، حتى رأى عبد الملك أن يبعث إليهم بالحجاج، فهو كما وصف نفسه أصلب القواد عودا وأشدهم مرارة.

وهاهو الحجاج يمضي إلى مهمته في العراق بخطوات ثابتة تأخذ الناس بالشدة والعنف والعسف، ويسوقهم بالعصا إلى الانضباط إلى

جيش المهلب لمقاتلة الخوارج ، وأمهلهم ثلاثة أيام فقط تدافع الناس خلالها على القتال بعدما شعروا جديته وصرامته وعزمه على التنكيل بهم ، ولم يقبل الحجاج من أحد عذرا حتى لو كان شيخا كبيرا ، أو عليلا أقعده المرض ، وقد تقدم إليه رجل من (يشكر) وقال له : أيها الأمير إن بى فتفا وقد رآه بشر بن مروان - الأمير السابق - فعذرني . . فلم يقبل الحجاج عذره وأمر بقطع عنقه ليكون مثالا لكل من تسول له نفسه مخالفة أمر الأمير . . وتناقل الناس هذه الحكاية وغيرها كثير ، فأدركوا أنهم أمام سفاح متعطش للدماء ، لا يبالي في سبيل تنفيذ أغراضه بأن يرتكب أى أمر مهما جلّ أو عظم ، فالغاية عنده تبرر الوسيلة ، وهاهو يفرض الأحكام العرفية على أهل الكوفة . ويمنع التجمهر ، ويكافح الشائعات حتى خافه اللص في وكره ، والمنافق في خلوته ، والجنين في بطن أمه .

وأنت خطة الحجاج ثمرتها الأولى في الكوفة ، فانتقل إلى الثانية قدما ، وذهب إلى البصرة ، ثانياً أهم الأقاليم العراقية ، وكان له مع أهلها لقاء لا يقل بشاعة عما كان مع أهل الكوفة ، وألقى فيهم خطبة كلها تهديد ووعيد « أيها الناس ، من أعياه داؤه ، فعندى دراؤه ، ومن استطال أجله فعلى أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه ، وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره ، قصرت عليه باقيه ، إن للشيطان طيفا (يعنى مسا) وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريره صحت عقوبته ، ومن وَضَعَهُ ذَنْبُهُ ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عليه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه . إني أنذر ثم لا أنظر (لا أمهل) وأحذر ثم لا أغذر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق ولا تكم (يعنى تسامح وضعف حكامكم) ومن استرضى لبيّه (وهو ما يستخدم لشد صدر الدابة ليمنع استرخاء الحمل) ساء أدبه ، إن الحزم والعزم سلباني سوّطى ، وأبدلاني به سيفى ، فقائمه في يدي ، ونجاده في عنقى ، وذبابه (يعنى حده) قلادة لمن عصانى . . » .

● برقيات :

ولعلك وجدت في خطبة البصرة ما وجدته في خطبة الكوفة من لهجة مسرفة في التهديد والوعيد، ولعلك وجدت أيضا صورة بيانية لبلاغة الحجاج، وقدرته على التعبير عن المعاني بأقصر العبارات كأنها البرقيات، وقد أجهل الدكتور محمد أحمد الحوفي خصائص خطب الحجاج في أنها تتسم كلها بقصر الفقرات حتى أن كثيرا من فقراتها مركب من كلمتين أو ثلاث، كما تتسم بالإكثار من الاقتباس من القرآن الكريم، اقتباسا ينبىء عن حفظ وفهم عميقين وتذوق دقيق، ولا عجب، فقد كان يعلم القرآن ويحفظه ويفهم مراميهِ ومضامينه، وكذلك يكثُر من الاستشهاد بالشعر وهذا واضح في خطبته الأولى بالكوفة، وليس في هذا عجب، لأن الرجل كان شاعر النفس ولعله لولا الحكم والسياسة والحرب لكان من الشعراء.

وفي رأى الدكتور الحوفي أن الحجاج كان أكثر خطباء عصره تهويلا وتخبيلا، حتى أن قسوته في الحكم، وغلظته على أهل الفتن لتتجليان في أقواله، كما تتجليان في أفعاله، ووسيلته إلى التهويل والتخيل مقدرة البيانية، فهو مغرم بلغته وأسلوبه، مولع بالتشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل، مثل قوله: والله لأحزمنكم حزم السلّمة، والسلم نوع من الشجر كثير الشوك ويخبطونه بالعصا ليتساقط الورق فتأكله الماشية. فلا عجب إن كان بعض سامعيه من خصومه يتأثرون ببلاغته، ويخالون الحق في جانبه، وقال أحد معاصريه: مارأيت أحدا أبين من الحجاج، إنه كان يرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق، وصفحهم عنهم، وإساءتهم إليه، فأحسبه صادقا، وأظنهم كاذبين. وقال الحسن البصرى: لقد وقذنتى كلمة سمعتها من الحجاج، وهى قوله على المنبر: إن رجلا ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له، لجدير أن تطول حسرته.

وكان الحجاج بارعا في تأييد وجهة نظره بالتدليل الخطابى الذى يكفل الإقناع، أو على الأقل، يزعزع الرأى المعارض له، فإنه لما قتل ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء فصعد الحجاج المنبر وقال : ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب فى الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكنَّ بحرم الله، ولو كان شىء مانعا للعصاة، لمنع آدم حُرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة» .

فكان الحجاج يرى أن الطاعة السابقة لاتمنع من عقوبة العاصى، بدليل أن الله عاقب آدم، وابن الزبير كان طائعا وعزيزا، لكنه عصى، إذن فعقوبته حق .

كما تشيع فى خطب الحجاج الموسيقى الناشئة عن سجع قصير الفقرات، أو الناشئة عن التقسيم والازدواج، وبسبب اعتداده بنفسه، واعتزازه بقوته وبطشه، كان الحجاج يستخدم ضمير المتكلم (إنى لأرى رؤوسا) وما ذلك إلا لرغبته فى أن يزيد السامعين خوفا منه، وتوقيا لعقابه، لأنهم واثقون من شدته وهو حينما يضيف أفعاله إلى نفسه بضمير المتكلم يضاعف الرعب منه ومن نكاله .

والمأثور عن الحجاج أنه كان جادا صارما ، قليل الضحك، مهيب المنظر، مربعا، وله فى ذلك أخبار كثيرة منها، أنه وفد على الخليفة الوليد ابن عبد الملك وعليه درع وكنانة وقوس عربية، فبينما هما يتحدثان جاءت جارية فهمست فى أذن الوليد ومضت، ثم عادت وهمست فى أذنه، وانصرفت . فقال الوليد للحجاج : أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد؟

فقال الحجاج : لا والله .

قال الوليد : بعثتها ابنة عمى أم البنين، تقول ماجالستك لهذا

الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة؟ فأرسلت إليها أنه الحجاج، فراعها ذلك، وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك ، وقد قتل الخلق!

فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين، دغ عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة (أى مسيطرة) فلا تطلعهن على شرك، ولا مكايذة عدوك، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن، وإياك ومشاورتهن في الأمور، فإن رأيهن أفن (يعنى فساد) وعزمهن إلى وهن (ضعف) ولا تطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك .

ولكن . . هل أفلحت سياسة العنف والجور والإرهاب في تنفيذ مقاصدها؟ وهل نجحت في توطيد سلطان الدولة، وإخماد الفتن والثورات؟

الأمر السائر

فرض الحجاج على العراق سياسة القمع والبطش والإرهاب، وأصبح الأمر الناهي، والسيد المطاع، والحاكم الأوحد، وفرض على الأهالي أحكامًا صارمة أشبه بالأحكام العرفية في العصر الحديث. فمنع التجمهر والاجتماعات وحظر عليهم السفر في قوافل أو جماعات. . «إياي وهذه الزرافات. . لا يركبن الرجل منكم إلا وحده. .» وأدرك الحجاج خطر سلاح الشائعات على نظام الحكم فأعذر وأنذر وقال: «إياكم وقيل وقال. . وما يكون وما هو كائن. .». فانهجست الأصوات في الحلوق، وانعقدت الألسنة في الأفواه. . وخيم الرعب على العراقيين فلا تسمعهم إلا همسا. .

وكان هذا الإرهاب بداية لسياسة جديدة اختطها الحجاج لتأديب أهل العراق وصرفهم عن الاشتغال بالسياسة، وإخماد أصوات المعارضة التي تعلو بين الحين والآخر، ورأى الحجاج أن خير وسيلة لتنفيذ خطته هي إشغال الناس بالحروب الخارجية، وإجبارهم على الذهاب إلى ميادين القتال لحرب الخوارج، فيضرب عصفورين بحجر واحد، فالجرب فرصة للقضاء على الخوارج الذين يشهرون السلاح في وجه الدولة، والحرب فرصة للخلاص من العراقيين المشاغبين الذين يسببون للدولة إزعاجات مستمرة والقضاء على أوكار المعارضة المنبثة في الكوفة، وبذلك يسلط أحد الجانبين على الآخر فتستريح الدولة من كليهما.

ولكن الحجاج - مثل كل الطغاة الذين لا ينظرون إلى أبعد من أقدامهم - لم يفطن إلى عواقب هذه اللعبة الخطرة التي تقوم على المقامرة أو المغامرة، بزج الشعب في حروب أهلية يمكن أن تنقلب عليه، ولم يفكر في النتائج التي عساها تنجم عن إضرام الحرب بين طرفين يضميران له العدا، فمن يضمن أن تتحول السيوف المشرعة عن أهدافها وترتد إلى نحرة، ولم يهتم هذا العسكري الغشوم بخطر إجبار الناس على خوض حروب على غير اقتناع منهم.

والخوارج كانوا يعادون النظام الحاكم ولكنهم نجحوا في مواقف كثيرة في استمالة قطاع كبير من المجتمع العراقي، وهم طائفة الموالي الذين عانوا الكثير من مظالم الدولة الأموية وتعصبها المقيت للعناصر العربية، وعدائها البغيض للعناصر غير العربية الأمر الذي غرس المرارة والحقد في نفوس هذه الجموع الغفيرة التي آمنت بعدالة الإسلام ومساواته بين جميع المواطنين بصرف النظر عن ألوانهم وأعراقهم، فلما وجدوا اضطهاد الدولة لهم تمنوا زوالها وتعلقوا بكل ثائر يعدهم بالخلاص، وقد حدث هذا في ثورة المختار الثقفي الذي نجح في تأليب الموالي ووعدهم بالمساواة فانضموا إلى صفوفه، فلما اندحرت حركته استكان الموالي على مضض، وبقيت في نفوسهم جذوة الحقد تعمل تحت الرماد، ولم ينتظر الحجاج حتى تهب الرياح فتشتعل الثورة من جديد، ورأى أن يسوق هؤلاء وأولئك سوق النعاج إلى حرب الخوارج فيقضي بعضهم على بعض. وأمهل الناس ثلاثة أيام يدبرون فيها أمورهم قبل أن يحملوا سلاحهم ويلحقوا بالجيش.

فهل حققت خطة الحجاج أهدافها؟ وهل استقامت له الأمور بعد أن أشعل جبهة الحروب الخارجية ليأمن شر الحروب الداخلية؟ وهل هدأ العراقيون وكفوا عن الاشتعال بالسياسة؟

في رأى بعض الباحثين في تفاصيل هذه الفترة من تاريخ العراق أن

هذه السياسة كانت سلاحا ذا حدين ، فلئن كانت هذه السياسة قد أبعدت الكوفيين عن التفكير في المسائل السياسية فشغلوا - إلى حين - عن معارضة الدولة الأموية والخروج عليها ، وخلصت الحجاج والدولة الأموية من كثير من أهل الكوفة الذين قتلوا في ميادين القتال ، فإن هذه السياسة - من ناحية أخرى - عملت على نشر حركة المعارضة ضد الدولة الأموية في الأقاليم الشرقية ، وبخاصة فارس وخراسان ، الأمر الذى مهد إلى قيام الانقلاب العباسى والقضاء على الدولة الأموية . وليس من شك أن هذه العناصر الكوفية التى خرجت مكرهة للقتال فى هذه الأقاليم خوفا من وعيد الحجاج كانت من العوامل القوية التى ساعدت على نشر روح المعارضة فى هذه الأقاليم التى كانت حركة المعارضة قد سبقت إليها منذ أقدم زياد بن أبيه على نقل مجموعات ضخمة من الأسر الكوفية إلى خراسان ليأمن شرها ، ثم اشتدت حركة المعارضة بعد مقتل الحسين ، وإذا كان زياد قد دق بفعلته - دون أن يقصد - المسمار الأول فى نعش الدولة الأموية ، فإن الحجاج دق - دون أن يقصد أيضا - المسمار الثانى فى النعش .

ومعنى ذلك أن الحجاج قد بلغ من هذه السياسة أهدافه القريبة ، وهى التخلص من إزعاج المعارضة ، ولكنه غفل عما وراء ذلك من خطر بعيد يتهدد الدولة الأموية التى أحبها وأخلص لها طوال حياته ، وارتكب كل فعل شنيع من أجل توطيد أركانها ، واجتثاث خصومها وأعدائها ، وشهد الحجاج بعينى رأسه فشل سياسته الرعناء فيما حدث من وقائع ثورة ابن الأشعث الذى بعث به الحجاج على رأس جيش كثيف لقتال الترك ، ولكنه ارتد لقتال الحجاج نفسه ودارت بين الجانبين وقائع مريرة فى (دير الجماجم) التى كانت اسما على مسمى بسبب ما سُفك فيها من دماء .

● الأمير الشائر :

كان عبد الرحمن بن الأشعث الذي يرجع في نسبه إلى ملوك « كندة » الأقدمين ، من أشراف الكوفة الذين استذلهم الحجاج فامتلات نفوسهم حقدا وضغينة على الدولة التي رمتهم بهذا الجبار العنيد ، وأشربت قلوبهم روح التمرد والسعى إلى الخلاص من هذا الضيم ، وقد واثته الفرصة المرتجاة عندما كلفه الحجاج بقيادة جيوش الدولة الأموية لتأديب « رتبيل » ملك الترك الذي دَوَّخ كل الجيوش الأموية ونكل بها نكالا شديدا ، وفكر الحجاج في قائد محنك يتصدى لهذا القائد الشرس ، فوقع اختياره على ابن الأشعث وأمدّه بجيش عظيم يسمى (جيش الطواويس) لتمام أهبتة وكمال عدته ، وربما اختاره الحجاج ليتخلص منه ، وعلى أى حال فقد التقى ابن الأشعث بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالمغانم ، غير أنه رأى - خشية على جيشه - التريث لالتقاط الأنفاس ، ولايتوغل وراء الترك حتى لايطبقوا عليه كما فعلوا مع سلفه ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، وبدلا من أن يتفهم الطاغية ظروف الرجل في هذه المناطق النائية ، أخذته العزة بالإثم ، وبعث إلى ابن الأشعث يعنفه ويؤنبه ويتهمه بالخور والضعف ، ويهدده بالعزل إن لم يمض في الفتح . . وإليك نص كتاب الحجاج ، وترى مافيه من عتو وغرور وعدم تبصر بعواقب الأمور :

« أما بعد فإن كتابك أتاني وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ، ويستريح إلى المودعة ، قد صانع عدوا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم في الإسلام عظيما ، لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن إنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخى النفس عمن أصيب من المسلمين ، إنى لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ، ولكنى رأيت أنه لم يملك عليه إلا ضعفك ، والتيات رأيك ، فامض لما أمرتك به عن الوغول في أرضهم

والهدم لخصونهم، وقتل مقاتلهم، وسبي ذراريهم. وإن لم تفعل فإن إسحق بن محمد أخاك أمير الناس، فخله وماوليته» . .

وقرأ ابن الأشعث رسالة الحجاج الطافحة بالتهديد والوعيد، ووجد أنه هالك لا محالة إذا هو خالف أمر الحجاج، وأنه ضائع أيضا إذا هو أذعن لأمر الحجاج، ووجد أن الفرصة قد حانت لتلقين هذا الطاغية درسا أليما، فجمع أركان حربه، وقرأ عليهم كتاب الحجاج، وخطبهم فكان من قوله :

«وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءني منه كتاب يُعجّزني ويُضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضى إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتتم». فثار الجند وقالوا : بل نأبى على عدو الله، ولا نسمع له ولا نطيع، وقام أحدهم وهو عامر بن وائلة خطيبا، فعاب على الحجاج، ودعا الناس إلى خلعه، وكان مما قال :

«أما بعد . فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه : «احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك». إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلادا كثيرة اللهب واللسوب (الطرق الضيقة الوعرة) فإن ظفرتم فغنمتم، أكل البلاد، وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كتتم أنتم الأعداء البغضاء، الذين لا يبالي عنتهم، ولا يبقى عليهم، اخلعوا عدو الله الحجاج، وبايعوا عبد الرحمن، فإنى أشهدكم أنى أول خالع» .

فنادى الناس من كل جانب فعلنا . . فعلنا . . قد خلعنا عدو الله وقام عبد المؤمن بن شبة بن ربيع التميمي فقال : «عباد الله، إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم مابقيتم، وجرمكم تجمير

فرعون الجنود (والتجمير هو حبس الجنود بأرض العدو بعد القتال) فإنه بلغنى أنه أول من جهر البعوث ، ولن تعانوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم ، بايعوا أكثركم ، بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم فانفوه عن بلادكم .

فوثب الناس إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه ، عند ذلك أعلن ابن الأشعث الخروج على الحجاج وعلى الخليفة عبد الملك بن مروان ، وخلعهما ، وتبعه الناس في ذلك ، وسار بالجيش فدخل البصرة ، ثم الكوفة ، فاجتمع إليه أهلها وأهل الثغور ، وعقدوا العزم على مقاتلة الحجاج .

● مبايعة :

وبايع الناس ابن الأشعث على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلالة وجهاد الظالمين والفساق ، فلما بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه ، ولكن الخليفة لم يستجب إلى طلبه واحتاط للأمر ، وأراد أن يستخدم الحيلة مع ابن الأشعث قبل أن يحتكم إلى السلاح ، فعرض على الأمير الثائر أن يختار أى بلد من العراق شاء يكون واليا عليه ، وأن يخلع الحجاج عن حكم العراق ، ويجرى على أهلهم أعطيائهم كأهل الشام ، فجمع ابن الأشعث كبار قاداته وعرض عليهم ما عرضه عليه الخليفة . وكان مما قاله :

« قد أعطيتكم أمرا ، انتهازكم اليوم إياه فرصة ، ولا آمن أن يكون على ذى رأى غدا حسرة ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا بالزاوية (موقع قرب البصرة) فأنتم تعتدون عليهم بيوم تُسْتَر (مدينة بالعراق) فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء ، والقوم لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقصون ، فوالله ما زلتهم عليهم أجرياء ، وما زلتهم

عندهم أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبدا ما بقيتم « فوثب الناس من كل جنب فقالوا : إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرفيع والمادة القريبة ، لا والله لانقبل ، ثم أعادوا خلع عبد الملك مرة أخرى .

والتقى الجمعان في (دير الجماجم) عام ٨٢ هـ حيث دارت المعارك النهائية بين جيش ابن الأشعث وجيوش الحجاج في ثمانين معركة واستمرت مائة يوم ، وانتهت هذه الملحمة الهائلة التي لم تشهد أرض العراق - منذ وقائع صفين أعظم منها هولا ، انتهت بهزيمة ابن الأشعث ، فهرب إلى أرض الترك لاجئا فكتب الحجاج إلى « رتبيل » يأمره أن يرسل إليه ابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ، وعز على ابن الأشعث أن يقع حيا في يد خصمه اللدود ، وأثر الموت على حياة الذل والعنت ، فقتل نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات لساعته ، فضرب رتبيل عنقه وأعناق بضعة عشر رجلاً من أقاربه وبعث بها إلى الحجاج تزلفا وقربى وليشفى غليله ويرضى حقه .

ودخل الحجاج الكوفة دخول الظافرين وصدره يغلي بالحق والحقبة والنقمة على أهل العراق . كما تمتلئ نفسه اعتزازا لجند الشام الذين كانوا على الدوام سيوف الدولة وحماها ، واعتلى المنبر ليقذف الناس بالحمم التي كانت تتناثر من فمه كما تتناثر النيران من البركان فقال :

« يا أهل العراق . إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم والعصب ، والمسامع والأطراف ، والأعضاء والشغاف ، ثم أفضى إلى المخاخ والأصباخ ، ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشعركم خلافاً ، اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤمراً تستشيرونه . . أستم أصحابي بالأهواز ، حيث رمتكم المكر ، وسعيتكم بالغدر ، واستجمعتم للكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا أرميكم بطرفي ، وأنتم تتسللون لواذاً ، وتنهزمون سراعاً ، ثم يوم

الزاوية . . وما يوم الزاوية . ! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم ،
وبراءة الله منكم ، ونكوص وليكم عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى
أوطانها ، النوازع إلى أعطانها ، لايسأل المرء عن أخيه ، ولايلوى الشيخ
على بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقسمتكم الرماح ، ثم يوم دير
الجهاجم ، وما يوم دير الجهاجم ! بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يُزيل
الهَامَ (الرأس) عن موضعه ، ويُذهل الخليل عن خليله . . » .

وبعد أن فرغ الحجاج من تقرير أهل العراق ، التفت إلى أهل الشام
وهم حول منبره ، وقال لهم : يا أهل الشام . . إنما أنا لكم كالظليم (ذكر
النعام) المدافع عن فراخه ، ينفي عنها المَدَرَّ (الطين اليابس) ويباعد
عنها الحَجَر ، ويُكْنِها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من
الذئاب ، يا أهل الشام ، أنتم الجُنَّة (الوقاية) . والرداء ، وأنتم العدة
والحذاء . . . » .

● تكفير :

ولم تقف نقمة الحجاج على أهل العراق عند حد التقرير والسباب ،
وإنما أراد أن يشفى غليله بالطريقة التي ترضى عطشه إلى الدماء وجاء
إليه الأسرى بعد هزيمتهم ، وهو يأمر بضرب أعناقهم « فكان ذلك فعله
يومه ذلك إلى الليل » على حد تعبير ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة)
ويأتى إليه الأشراف والعلماء والقراء لإظهار الندم ، ويجددون البيعة ،
فيأبى أن تقبل توبتهم حتى يشهدوا على أنفسهم بالكفر ، فمن شهد
نجاء ، ومن أبى لقى حتفه ، وجاءه رجل ذكى فقال الحجاج إنى أرى
رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، ولكن الرجل الحريص على حياته
قال : أخادعى أنت على نفسى ؟ ! أنا أكفر أهل الأرض ، وأكفر من
فرعون ذى الأوتاد » وراح ضحية هذه المحنة كثير من الأئمة والعلماء

والفقهاء الأفذاذ منهم الإمام العظيم سعيد بن جبير الذى رفض أن يشهد على نفسه بالكفر، وتصدى للحجاج بأشجع وأروع ماعرف تاريخ الإسلام من عبارات الصمود والثبات على رأى .

وكان العلماء يمثلون كتيبة مستقلة فى جيش ابن الأشعث عرفت بـ «كتيبة القراء» قامت فى القتال بدور خطير، فقد اندفعوا فيه يقاتلون فى عزم صادق وشجاعة فائقة . يُحْمَلُ عليهم فلا يكادون يبرحون، ويحملون فلا يكذبون ، كما يقول الطبرى، ولعل أكبر دليل على هذه الشجاعة الفائقة أن الحجاج عبأ لكتيبة القراء ثلاث كتائب، ومن الطبيعى أن يقاتل هؤلاء القراء فى هذا العزم الصادق، وهذه الشجاعة النادرة ، لأنهم خرجوا مع ابن الأشعث عن إيمان دينى عميق بحتمية الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر، وضرورة الخروج حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الظالمين هى السفلى ، وقد رأى هؤلاء « القراء » أن الحكام الأمويين المحلّين المحدثين المبتدعين كما كانوا يسمونهم قد جهلوا الحق فلا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه وإن أحدهم ليقسم بالله إنه ما علم قوما على بسيط الأرض أعلم بظلم، ولا أجور منهم فى الحكم . .

وهكذا خرج هؤلاء القراء المؤمنون الصادقون يقاتلون الأمويين على جورهم فى الحكم، وتجبرهم فى الدين، واستدلاهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة ، ومن هنا كان ذلك العزم الصادق الذى خرجوا به إلى القتال، وتلك الشجاعة الفائقة التى خاضوا بها غماره، فهم إنما يقاتلون فى سبيل الدين الذى أخلصوا له، ووهبوا له حياتهم .

ولم يكد الحجاج يقضى على ثورة ابن الأشعث حتى مضى ينفذ سياسة ذات شعب متعددة يضمن بها هدوء هذه الأرض التى تنفجر بالثورة ، وقامت خطته الجديدة على عزل جند الشام عن أهل الكوفة حتى لا تتسرب إليهم روح الثورة، ورأى أن يبنى لهم مدينة جديدة تكون

لهم بمثابة المعسكر المعزول عن الحياة المدنية، فكانت مدينة « واسط » على منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة، وجعلها معقله وقاعدة حكمه، ونقل إليها فصائل من جيش الشام ليكونوا له رداء يحميه من أعدائه، وليكونوا سيفاً قريباً من يده إذا حانت ساعة العمل . . فقد كان الحجاج يشعر دائماً أنه يعيش على أرض معادية، ويعيش بين قوم يضمرون له العداء بنفس القدر الذي يحمله لهم ، فما اتعس ذلك الحاكم الذي يحكم قوماً يكرههم ويكرهونه . .

أمن الدولة وأمن الرعية

إذا كان المؤرخون لا يختلفون على إدانة الحجاج وكونه سفاحا ولوعا بسفك الدماء . . إلا أن السؤال الذى عليه الخلاف هو : هل كان ذلك مرجعه طبيعة الحجاج الشخصية ، وظروفه النفسية المفطورة على الجبروت؟ أم مرجعه إلى الدولة التى كان الحجاج جنديا مخلصا لها منفذا لسياستها القائمة على الإرهاب والبطش والتنكيل بالخصوم؟ وهل يتحمل الحجاج - وحده - تبعات جوره وظلمه . . أم تقع المسؤولية بالدرجة الأولى على الدولة التى أطلقت له الحبل على الغارب، وسكتت على أعماله التعسفية، بل شجعتة على المضى فى طريق الإرهاب إلى نهايته ليحمى الدولة من الخارجين عليها والطامعين فيها والقائمين على إثارة الفتن والقتل والاضطراب فى أرجاء البلاد (!!).

هذه قضية ينبغى أن نتوقف عندها قليلا . . لأنها تدور حول تحديد مسئولية الطغيان، وهل يتحملها « الأدوات » الذين تستعملهم الدولة؟ أم تتحملها الدولة نفسها التى تجعل من الترويع والإرهاب سياسة عامة، فتعصف بالقيم والمبادئ التى تحمى حقوق الإنسان، حتى لو كان هذا الإنسان معارضا للدولة، وهل من حق الدولة وهى فى سبيل الدفاع عن شرعيتها وسيادتها ضد الخارجين عليها أن تستبيح الحرمات وتستهيئ بالأرواح؟ وهل تفلح هذه السياسة فى إقرار الأمن والقضاء على الفوضى والتمرد؟؟

ولكى يكون حكمنا على الحجاج عادلا وموضوعيا ينبغى أن نلم بالظروف التاريخية التى عاش فيها الرجل ، ونلقى نظرة فاحصة على أركان المسرح الذى لعب عليه الحجاج دور البطولة المطلقة طيلة حياته حتى أسدل الموت عليه ستاره فمات ميتة طبيعية عام ٩٥هـ فى مدينة واسط ، و«مات على فراشه كما نموت العير» . . وجاءت نهايته عادية على عكس ما كان متوقعا . . وعلى غير ماجرى لكل الطغاة الذين لقوا حتفهم بنفس السلاح الذى قتلوا به خصومهم .

أجل . . . ينبغى أن نتعرف على طبيعة المرحلة التى عاشها الحجاج لنرى تأثيره بها وتأثيره فيها . . وما جرى من تفاعل بين مقوماته الشخصية . والمقومات العامة للدولة التى أخلص لها وأفنى حياته فى خدمتها وسخر مواهبه فى الدفاع عنها . . فليس مما يتفق مع طبيعة الأمور أن يكون البطل التاريخى نبأ شيطانيا ينمو من فراغ ، ولا بد أن يكون ابنا شرعيا للتربة التى خرج منها ، والمجتمع الذى عاش فيه ، ولا بد أن يكون المناخ العام للدولة مهيئا لإبراز مواهبه الشخصية ثم صقلها ومنحها فرصة التفوق . ولو لم تكن ظروف المجتمع الأموى - فى عهد عبد الملك ابن مروان - مهيأة لتقبل سياسة الطغيان والاستبداد ، لما تمكن الحجاج من ممارسة دوره التاريخى ، ولكان من الممكن - على الأقل - الحد من جبروته إلى أدنى حد .

أما وقد تواءمت . سياسة الدولة الاستبدادية مع النزعة المتأصلة فى نفس الطاغية فهنا تلتقى الظروف العامة مع الظروف الشخصية على سياسة واحدة لا خلاف عليها ، ونحسب أن الحجاج لم يكن ليتماذى فى طغيانه وجبروته لو لم يكن الطغيان سياسة عامة رسمها عبد الملك ، ونفذها الحجاج بشغف ، فالحجاج وغيره لم يكونوا أكثر من أسواط تستخدمهم الدولة إذا أرادت . . وتحبسهم إذا « أرادت » .

● شتائم :

ومن الأقوال التاريخية الشائعة أن الخليفة عبد الملك بن مروان ضاق ذرعا بفظائع الحجاج ، وهاله إسرافه في سفك الدماء ، وارتاع عندما علم أن الحجاج استعرض الأسرى بعد هزيمة ابن الأشعث في معركة دير الجماجم وأمر بضرب أعناقهم ، فماذا فعل أمير المؤمنين مع الحجاج؟ هل اقتصر منه تلك الأرواح البريئة التي قتلها غدرا وظلما؟ هل أمر بحبسه حتى يذوق وبال أمره؟ هل أقاله من منصبه حتى يقى الناس شره . . وهذا أضعف الإيمان؟

أبدا . . كل ما فعله الخليفة أن أرسل إلى الحجاج كتابا فيه تقرير وتوبيخ وإليك نصه :

« يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب ، والله لقد هممت أن اركلك برجلي ركلة تهوى بها في نار جهنم ! قاتلك الله . . أخيفش العينين ، أصك الرجلين ، أسود الجاعرتين . . » .

هذا كل ما فعله الرجل المسئول عن دماء المسلمين مع قائده الذي ولغ في دماء المسلمين!! أرسل إليه يهدده بأن يرفسه برجله فيهوى إلى الجحيم . . ويسبه بأنه أعمش العينين وأن رجله تضرب إحداهما الأخرى عند السير (!!) والذي أتصوره أن الحجاج تقبل تهديدات سيدة باسمها ولسان حاله يقول : ضرب الحبيب الذم من أكل الزبيب .

ومضى الحجاج في سياسته الإرهابية غير عابىء بشتائم الخليفة لأنه يعلم علم اليقين أنه - أى الحجاج - إنما ينفذ سياسة عامة رسمها عبد الملك ، ولم يخرج عليها الحجاج . . وربما زاد عليها حبتين إمعانا في البطش ، وإرضاء لنزوة شخصية تدفعه دفعا إلى تعذيب الخصوم وإذلالهم .

فالحجاج إذن لم يخرج عن سياسة الدولة الإرهابية ، والتزم نهجها في

العنف والبطش والقسوة والجبروت ، كل ما هنالك أنه غالى في هذه السياسة غلوا منكرا لأسباب ترجع إلى ميوله العدوانية ، وطبيعته المتعطشة إلى الدماء ، وقد أفصحت هذه النزوات عن نفسها في الحجاز أولا . . ثم في العراق ثانيا عندما تولى شئونه الحجاج ، ولم يكن عبد الملك أقل من الحجاج كرها ونقمة على أهل العراق ، وإذا كان الخليفة يكره أهل العراق قيراطا فإن خادمه الحجاج يكرههم أربعة وعشرين قيراطا . . فاندفع إلى الفتك بهم وتمنى لو أنه أزالهم من الحياة ، ولو قدر لفعل .

هكذا كانت الدولة . . وكانت سياسة الحكم . . وعلاقة الراعى بالرعية - فما الذى جرى؟ - وما الذى جعل من الدولة سيفا مسلطا على رقاب العباد بدلا من أن تكون مصدرا للرحمة والعدل والإحسان؟

● عواصف :

لقد تسلم عبد الملك الدولة الأموية وقد عصفت بها الرياح الهوج وتفككت أوصالها وتكالت عليها عناصر الفرقة والانقسام ، فعبدا لله بن الزبير قد استقل بالحجاز ومصر ، وبعث أخاه « مصعب » واليا على العراق . . والخوارج انتهزوا فرصة وفاة معاوية وانقضوا على الدولة يعيشون فيها قتلا وترويعا . . وها هم « الأزارقة » أتباع نافع بن الأزرق يرفضون التهادن أو المساومة مع الدولة ، بل تطرفوا فحكموا على مخالفيهم من المسلمين بالشرك ، وأباحوا قتلهم وقتل أطفالهم ونسائهم ، وقاموا بأعنف الثورات وأجراً الهجمات لاسيما أنهم كانوا لا يجيزون القعود عن القتال ولا يتورعون عن قتل الأطفال وبقر بطون الحبالى ، وكانت طريقتهم في الهجوم أشبه بحرب العصابات فيغيرون غارات مفاجئة سريعة على جيوش الدولة ، فلما تفاقم خطرهم رماهم مصعب بن الزبير بواحد من أشد القادة حنكة ودراية هو المهلب بن أبى صفرة الذى حفظ التاريخ

اسمه كأجرا قائد في حرب الخوارج ، فلما مات مصعب وانتقل العراق إلى
تبعية الدولة الأموية ، أبقى عبد الملك المهلب في موقعه حتى نجح في
القضاء على الأزارقة ، وقد كان عنفهم وتطرفهم سببا في سرعة القضاء
عليهم واستئصالهم ، فلما تولى الحجاج حكم العراق تحركت فرقة أخرى
من فرق الخوارج هي (الصُفْرية) تحت زعامة صالح بن مُسَرِّح التميمي ،
وكان معظم أصحابه من النساك الزهاد الذين يتشوقون إلى الشهادة تحت
أسنة الرماح ، فرماهم الحجاج بجيش من أهل الكوفة فلما انجلت
المعركة عن مقتل زعيمهم بايع الصفريه شبيب بن يزيد الشيباني الذي
كان مضرب المثل في الشجاعة والتهور ، وقد استطاع أن يلقي الذعر في
قلوب أهل العراق على قلة أنصاره ، وتحدى هو وزوجته (غزالة) الحجاج
في قمة جبروته فدخل الكوفة وأدت غزالة صلاتي العشاء والفجر في
مسجدها دون أن يجرؤ الحجاج على الخروج إليهما . وكان الحجاج لا يوجه
إليه جيشا إلا هزمه ، وارتدت فلوله تجر ذيول الفشل ، حتى ليعجب
المؤرخون من انتصارات شبيب المتصلة ، وهو في قلة من العدد على
جيوش الدولة اللجبة ، ومرد ذلك كله إلى قوة عقيدة الخوارج التي
جعلتهم يستهينون ، بالجحافل الحكومية ، ويستعذبون لقاء الموت ،
ويعدون الاستشهاد في ساحة الوغى غاية ما يصبون إليه ، وانتهت
أسطورة شبيب الشيباني عندما زلت قدم فرسه وهو يعبر أحد الأنهار
فمات غرقا سنة ٧٧ هـ وبذلك استراح الخليفة ومعه الحجاج من خطر
الخوارج ، وطويت بموت شبيب صفحة من صفحات الفروسية
النادرة . ولكن لم تتوقف الاضطرابات والفتن ، وظلت الكوفة - عاصمة
العراق الشيعية وموطن المناصرين لأهل البيت - وكر المعارضتين السرية
والعلنية لدولة بني أمية الذين اغتصبوا - في رأيهم - حق أبناء علي بن أبي
طالب في الحكم .

وكان هناك بعد آخر للعلاقة المتوترة بين أهل العراق والدولة الأموية
يعود إلى الكره القديم الذي يحمله العراقيون للشام - عاصمة ملك بني

أمية - فكان العراقيون جميعا يحملون الضغن والحقد على الشام لضياع سيادتهم وخضوعهم لدمشق، فسلط عليهم الأمويون ولاية غلاظا شدادا، وكان ذلك يزيد في حقدهم وألمهم فتعلقوا بكل ثائر على الدولة الأموية، وسرعان ما كانت الجيوش تغلب عليهم فيخضعون على مضض، ويمضون منتظرين الحوادث، وجاء الحجاج ليأخذهم بسياسة قاسية لا رحمة فيها ولاشفقة، ورأى الحجاج أن أدوى دواء لهم أن يوجههم في المغازي والحروب، وأن يشغلهم بالقتال خارج الحدود عن قتالهم الدولة حتى ليستكثر عليهم أن يعودوا ليقضوا ليلة واحدة طيبة بعد طول غياب، ويصارحهم بكرهه لهم ورغبته في استئصالهم، ويكشف عن مكنون نفسه في هذه الخطبة.

«يا أهل العراق، إني لم أجِد دواء أدوى لدائكم (أى أشد إمرضا) من هذه المغازي والبعوث، لولا طيب ليلة الإياب، وفرحة القفل (أى الرجوع) فإنها تعقب راحة، وإني لا أريد أن أرى الفرح عندكم، ولا الراحة بكم، وما أراكم إلا كارهين لمقاتلي، وأنا والله لرؤيتكم أكره، ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم، ما حملت نفسي تعاساتكم والصبر على النظر إليكم، والله أسأل حسن العون عليكم...».

● جفوة :

أرأيت إلى حاكم يحمل في قلبه كل هذا البغض والحقد نحو رعيته؟ وماذا تنتظر أن يكون موقف الرعية من حاكم غشوم ظالم يتمنى زوالهم، ويبعث بهم إلى ميادين القتال، ليس دفاعا عن مبدأ أو عقيدة، ولكن رغبة في الخلاص منهم... وماذا تتوقع أن يكون ثمن هذه العلاقة الشاذة بين الدولة ورعاياها؟ يقول الدكتور ضياء الدين الرئيس: إن سياسة الشدة والغشم التي اتبعها الحجاج إذا كانت أجدت في إخراج الناس

لحرب الخوارج - فإنها في ذات الوقت أفسدت قلوبهم ونياتهم وأصبحت الجفوة بعيدة بين أهل العراق وبينه ولقد صار أهل العراق يكرهونه إلا من كانت مصالحهم تتفق مع البقاء معه .

وهذه السياسة أدت إلى قيام ثورة في البصرة في خلال سنة ٧٦هـ قادها عبد الله بن الجارود ، وأيده عدد من القواد ، وكاد الحجاج يهلك فيها أيضا لولا ثباته وحسن حظه ، وانضمام بعض القواد إليه ، ولم يكن هناك من سبب قوى لكى يعرض نفسه لهذه الثورة وهذا الخطر ، فقد كان سببها أنه رفض أن يجيز زيادة مرتبات الجند ، وكان مصعب بن الزبير قد قرر هذه الزيادة في أواخر أيامه ، فكان رفض الحجاج لهذه الزيادة - تعنتا وبخلا - ولاسيما أن الوالى السابق بشر بن مروان - شقيق الخليفة - كان أقر هذه الزيادة فكان أحسن في السياسة لو أجازها الحجاج . وبذلك يرضى الناس ويرضى القواد ، ويضمن تأييدهم بدل إغضابهم وإثارتهم ، فإن التضحية بالأموال خير من التضحية بالرجال ، ولئن كان الحجاج نجح في إخماد الثورة ، والقضاء على من خرجوا عليه فما كسب بذلك ، بل خسر كثيرا ، وقد أدت هذه السياسة أيضا إلى ثورة رجل من أهل بيت عرف بإخلاصه للدولة هو : مُطَرِّف بن المغيرة بن شعبة ، وكان إذ ذاك واليا على (المدائن) فلم يرض عن « سياسة جور وتسلط بالجزية » وهو ما يعرف في العصر الحديث بالديكتاتورية ، فلحق بالجهال ومازال يقاتل حتى قتل .

إن سياسة الشدة التى سلكها الحجاج ، إذا كانت تنجح في ظروف حربية استثنائية ولمدة مؤقتة فإنها لا تنفع أن تكون سياسة دائمة تساس بها الشعوب ، وإنها تؤدي إلى عواقب خطيرة ، فملخص الحكم على الحجاج - في رأى الدكتور الرئيس - أنه كان حاكما عسكريا ، ولم يكن سياسيا ولا قائدا حربيا ، وكان يجب على الخليفة عبد الملك - بعد أن انتهى أمر الخوارج - أن يعزله ، ويبدله بحاكم أكثر سياسة وأوسع أفقا

ليجذب قلوب الناس ، بدل أن يزيدهم نفورا ، لكن يظهر أن عبد الملك كان سييء الاعتقاد في أهل العراق ، وكان يرى أنه لا يصلح لهم إلا الشدة والقوة ، وإلا أحدثوا الفتن ولم يطيعوا الأوامر ، وإنه لا يخضعهم إلا مثل الحجاج .

● الرجل المناسب :

وفي رأى بعض الباحثين أن الحجاج كان هو الرجل المناسب في المكان المناسب وفي ظل الظروف العاتية التي كانت تمر بها الدولة الأموية ، إذ كان عبد الملك يواجه مشاكل جسيمة من عظماء الأمور ، وكان عليه أن يجابه الفتن والدسائس والمتمردين عليه ، والخارجين على الطاعة من الرعية ، والمتطلعين إلى الملك ، والناقمين على الخلافة ، وأن يروض تلك الشعوب الإسلامية في الأمصار المختلفة على الطاعة ، والانصراف عما كانوا عليه من مؤازرة أعداء بنى أمية وأتباع تلك الطوائف في احتضان دعواتها ، كان عليه أن يقرر النظام والأمن ويهيء حياة الاستقرار في ربوع البلاد ، وأن يتفرغ للإصلاح الداخلى ورعاية شئون الدولة ، وأن ينشر لواء الإسلام فيما وراء الحدود ، حيث توجد بلاد وشعوب تنتظر نور الإسلام وعدله وسماحته .

ومن أجل تنفيذ هذه السياسة العامة سلك عبد الملك سبيل الشدة ، والعقاب على الصغيرة عقاب الكبيرة ، وأخذ الناس بالتهديد والوعيد والتحذير ، ولقائهم بحد السيوف وأسنة الرماح ، كما وعدهم ومناهم في العاجل والأجل واختار عبد الملك لتنفيذ هذه السياسة الحجاج بن يوسف الثقفى لعلمه بالمزايا الشخصية التي يتمتع بها والتي تصلح تماما مع ما يبتغيه الخليفة ، وفي مقدمتها شدة إخلاصه لرئيسه عبد الملك وتفانيه في خدمة الدولة وأداء واجبه ، ومنها قوة شخصيته وإرادته ، ورغبته في الإصلاح والتعمير وكفاءته الإدارية ، واهتمامه بشأن الفتوح التي سيكون له فيها أثر كبير فيما بعد .

● كفاءة :

ويلخص الدكتور عبد المنعم ماجد الجانب الإيجابي في شخصية الحجاج ، وقد برزت أعماله الإصلاحية في العراق ولم تقف عند حفظه من الفتن بل عمل على إصلاحه مما أصابه بسببها ، فهذه البلاد الواسعة التي كان العرب يسمونها بالسواد لكثرة زروعها قد آل معظمها للعرب بعد فرار ملاكها أو قتلهم ، وقد أهملت هذه الأراضي منذ آخر عهد عثمان بسبب الفتنة الأولى ، ثم أصلحها زياد في عهد معاوية ، وحفر بها القنوات كذلك قام الحجاج بإصلاحها بسبب ما أصابها من بوار أثناء فتن الخوارج ، فكان يستخدم الفلاحين غير العرب في إصلاحها ، ولكنه كان يستدل الموالي بأن ينقش على يد كل مولى اسم بلده ، فغرس في أهالي السواد الحقد الأبدي ضد الأمويين ، ولعل الحجاج أعاد توزيع أغلب أراضي السواد بسبب حرق الناس الديوان بالكوفة ، وبذلك برزت شخصية الحجاج القوية في تاريخ الدولة ، فهو كما وصفه سيده عبد الملك بن مروان : « بفضله وطأ المنابر ودوخ البلاد وأذل الأعداء » .

ومهما قيل في مناقب الحجاج وكفاءته الإدارية وإصلاحاته العامة فإنه أفسد كل ذلك بما ارتكبه من أعمال العنف والجور والظلم ، وكل ذلك لا يصلح أمة إصلاحاً حقيقياً أبداً كما يقول الشيخ الخضري . . وكل ما فعله أنه وضع على الرجل غطاء مؤقتاً لتأجيل الانفجار إلى حين حتى إذا حانت لحظة الغليان طار الغطاء في الهواء وفاضت المياه الساخنة لتحرق من يصيبه رذاذها . . ومهما قيل عن مواهب الحجاج فإن ذلك لا يوازي حب الناس ، وطاعة الرعية عن رغبة وطوعية ، والثوق بإخلاصهم للوقوف مع الدولة في أوقات الشدة ، فالقاعدة المتينة الراسخة التي يؤسس عليها الحكم ، وتقام عليها الدول ، إنما هي حب الشعب لمن يحكمونه وإخلاصه لهم .

لقد نجح الحجاج في القضاء على الخوارج ، وانتهت فتنهم وأخذت

الثورات الأخرى واستعادت الدولة وحدتها نهائيا ، ولم يعد هناك استثناء ولا شذوذ ولا خروج ولا انفصال ، وصارت دولة واحدة وكتلة واحدة ليس عليها إلا خليفة واحد هو عبد الملك بن مروان ، وعاصمة واحدة هي (دمشق) والفارق كبير بين حال الدولة حين تسلمها عبد الملك ممزقة منقسمة على نفسها ، تشيع فيها الحروب والفتن ، وحالها بعد أن استقرت . . ولكن الثمن كان غاليا وفادحا . . دفعه مئات الألوف من الأبرياء الذين راحت أرواحهم في الحروب والثورات . . ودفعه الملايين من الرعية تضيقا وعنتا وقيدا على حرياتهم . . ولكنه الصراع الأبدي بين أمن الدولة . . وأمن الرعية .

الحرية الحمراء

كثيرا ما راودتني نفسى على اقتناء قفص بداخله عصافير من تلك الأنواع التى تدخل البهجة على النفوس بألوانها الزاهية وأنغامها الشجية، ولكننى كنت أراجع عن تنفيذ هذه الرغبة، احتراما منى لقيمة الحرية عند هذا الطائر الصغير، وكنت ألوم نفسى إذ تبحث عن المتعة فى رؤية كائن يتعذب فى سجنه، ولا أسمع فى هذه الأنغام التى يشدو بها سوى نواح مكظوم وأنات سجين يبكى حريره الضائعة، ويتمنى اللحظة التى يتخلص فيها من القيود والأغلال، وينطلق فى ملكوت الله العريض، يتغنى بحريته ويصدق بما شاء الله له أن يصدق تسبيحا وتمجيذا لمولاه . ونفس هذه الشعور يملكنى كلما زرت حديقة الحيوانات، ورأيت الحيوانات الضخمة أسيرة . . ذليلة . . وراء القضبان . . وإننى لأقف أمام قفص السبع وهو ممدد على البلاط فى استرخاء يائس . . وأتفرس فى وجهه فأراه عابسا . . حزينا . . وتسرى إلى نفسى إشعاعات حزنه . . فأتألم من أجل هذا الكائن العظيم الذى تخشاه كل الكائنات، وتعمل له ألف حساب . . رحم الله يوما كان فيه سيد الغابة . . يتبخر فتفر من وجهه كل الأحياء مذعورة . . وتخلى له الطرق والمسالك . . فما الذى أورده هذا المصير البائس . . وجعله أسيرا . . كسيرا . . يتحرك فى قفص يقاس بالأشبار، وهو الذى كان يمرح فى غابة لا يحدها قياس . .

لقد فقد السيد حريره . . وأصبح « فرجة » للصغار والكبار . . وتحول إلى عبد ذليل يتحكم فيه حارسه . . يطعمه وقتها يشاء . . ويوقظه وقتها يشاء . .

ألا ما أقسى العبودية . . وما أعظم الحرية . .

ولاشك أن أسد الحديقة سوف تهون عليه بلواه إذا علم بمأساة أخيه أسد السيرك . . وقد حكمت عليه الأقدار بأن يتحول إلى بهلوان . . أو بلياتشو . . يجرى ويقفز ويرقص بإشارة من سوط يلعلع في الهواء . . وضحكات الصغار تتصاعد من حوله ، والناس يصففون لمهارته في أداء الأعاجيب ، ولا يعرفون أن مهارته هي غطاء زائف للجوع الذى يلسع أحشائه . طعامه مرتبط بهذه الحركات يقوم بها كل مساء . . وهو يقضى نهاره يتلوى من الجوع ، ولا يأخذ نصيبه من الطعام إلا إذا خرج على الناس في الحلبة . . يضحكهم ويسعدهم ويبهرهم . . ثم يتقاضى الثمن بضع قطع من السكر تتسرب من يد المدرب إلى فم الأسد كلما أتمن دوره . . وأبدى من أعاجيب الفنون . . ما يضحك الإنسان .

فاعلم يا أخى حماك الله - أن الجوع ابن الذل . . والعبودية بنت الفقر . . والحاجة تنكس رؤوس الأحرار . . وكرم الله وجه القائل : أذل الحرص أعناق الرجال . . واعلم يا أخى - وقاك الله كل مكروه - أن الحرية هي السطر الأول في كتاب الكون يوم خلق الله الكائنات لتسبح بحمده وهي تجوب أجواز الفضاء . . أو تغوص في أعماق البحار أو تجول في فجاج الأرض . . ثم جاء الإنسان فبغى وطغى . . وتكبر وتجبر . . وجعل من نفسه إلهاً في الأرض فاستعبد أخاه الإنسان . . وصادر حريره . . وأرغمه على خدمته بالسخرة . .

وعرفت الإنسانية معنى العبودية . . والرق . . وكل المعانى القميئة التى تشوه جمال الحياة وتفسد العلاقات بين بنى البشر . . وتحول الناس إلى سادة يتحكمون . . وعبيد يركعون . . وأصبح الإنسان غير آمن على نفسه من أخيه الإنسان . . لا يأمن الابتعاد خطوات عن مضارب قومه فتلتقطه أيدي العصابات التى كانت تجوب الصحارى والقفار، وتختطف كل من يقع في طريقها من بشر فيصبح رقيقاً يباع في سوق النخاسة .

لقد أفسد الإنسان ناموس الحياة . . ولم تعد الحرية فطرة تخلق مع الإنسان عند ولادته . . وإنما أصبحت حقاً مغتصباً يسعى الإنسان إلى استرداده، ويبذل في سبيله النفس والنفيس . . ويحافظ عليه بكل ما يملك من قوت . . ويدافع عنه كما تدفع الأم عن صغارها نهم الوحوش . .

إنك إن تهاونت في حريتك لحظة فبهيات أن تستردها . . وإن تغافلت عنها طرفة عين فسوف تجد من يسرقها منك، ويدعيها لنفسه . . فتصبح له عبداً . . ويصبح لك سيداً . .

ونحن في حياتنا التربوية نقدر الحرية ونزرعها في نفوس أولادنا . . ونتغنى بالشعارات التي تمجد الحرية، ونحفظ الكلمات المأثورة عن قيمة الحرية . .

نحفظ كلمة الخليفة عمر بن الخطاب التي يقول فيها: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . .

ونحفظ عبارة الزعيم أحمد عرابي التي ألقى بها في وجه الطاغية الصغير توفيق: إن الله خلقنا أحراراً . . ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً . . ولن نورث بعد اليوم . .

ونحفظ بيت الشعر الذي بناه أمير الشعراء شوقي وقد بلغه نبأ المجزرة التي أقامها جيش الاحتلال الفرنسي لأحرار دمشق:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

ونحن ننحت التماثيل ونديج القصائد في تكريم أولئك الأحرار الذين قادوا حركات الكفاح ضد الطغيان في كل أشكاله . . وحرروا أقوامهم من العبودية . . ونحن نفعل ذلك حتى تظل جذوة الحرية متقدة في نفوسنا . . ولكن الحرية لا تنهض بقصائد الشعر . . إنما بالذود عنها . . ضد التسلط . . والقهر والبطش والطغيان . . فالصراع بين الحرية

والاستبداد هو صراع أبدى . . وسيبقى على ظهر الأرض طالما بقيت هناك نفوس متعطشة ومتعطشة إلى التسلط . . وإذا كانت الحرية «حقاً» . . فإنها تصبح بلا قيمة إذا لم تكن هناك قوة تحمى هذا الحق وتسنده وتصونه من طمع الذئاب . . وإذا كنت بلا درع فسوف تتكالب عليك وحوش الفلاة . .

● حلاوة الحرية :

والحرية معاناة وممارسة . . وشقاء وعذاب . . ولكى تتذوق حلاوة الحرية لابد أن تدفع مهرها . . فالحلاوة التى بلا نار لم تخلق بعد . .

ولست هنا لأروى لك قصص الأبطال الذين ضحوا بحياتهم من أجل الحرية . ولكنى أتحدث عن الحرية كما ينبغى أن يمارسها كل إنسان دون أن يكون بطلاً أو شهيداً . . حقك فى أن تعيش حراً فى مجتمع حر . . تعبر عن رأيك دون أن تخشى الملام . . حقك فى أن تمارس حريتك السياسية . . وحريتك الاقتصادية . . وحقك أن تختار الحاكم وتنتقده وتحاسبه إذا أخطأ . . وتغيره إذا خرج على حدود العدل والإنصاف . .

ولا تغضب إذا قلت لك إن كل هذه الحقوق لن تحصل عليها وأنت قابع فى بيتك . . تقرأ الصحف ثم تطويها وتمصص شفيتك أسفاً وحسرة . . وتنتظر من غيرك أن يكافح ويستشهد ليقدم لك حريتك على طبق من الفضة . . هذا الطراز من الحرية أشبه بالمنحة التى يفضل بها القادرون على العاجزين . . ولن تشعر بقيمة الحرية إلا إذا تعبت وشقيت وتعذبت مثلما شقيت شعوب حتى اقتنصت حريتها بأظافرها . . فأصبحت الحرية عندها قيمة عليا لا يمكن التهاون أو التفريط فيها . . إن الحرية عند هذه الشعوب من المقدسات التى يستحيل على الحكام المساس بها . . ولم تصل الشعوب إلى هذه الدرجة الراقية إلا بعد كفاح

مرير ضد الطغاة المستبدين الذين كانوا يحكمون شعوبهم بمقتضى الحق الإلهي . . . وهى خرافات زائفة كان الكهنة يشيعونها لحساب الملوك حتى تظل الشعوب ذليلة مقهورة تعمل وتشقى ليتمرغ الحكام فى النعيم . . . ويتمرغ الناس فى جحيم الفقر والظنك . . . ولكن الإنسانية لم تكن تعدم ظهور ناس شرفاء يتصرفون للخير ويقفون إلى جانب العدل ، ويحتقرون الظلم ، أولئك هم المفكرون الأحرار الذين كانوا يجهرون بالحق ويشيعون فى الناس دعاوى الحرية ، ويؤلبونهم على كل مظاهر الفحش والفجور التى يمارسها الطغاة بمساعدة المأجورين من رجال الدين . . . والسياسة ، وأخذ الناس يتمردون على ملوكهم . . . ويرغمونهم على النزول على إرادتهم . . .

● الميثاق الأعظم :

انظر مثلاً إلى كفاح الإنجليز ضد ملوكهم الطغاة . . . فى مطلع القرن الثالث عشر، كان على رأس انجلترا ملك من هذا الطراز اسمه « جون » وهو شقيق ريتشارد قلب الأسد الذى جاء إلى الشرق على رأس إحدى الحملات الصليبية فى عهد صلاح الدين الأيوبي . . . واعتزم الملك جون أن يواصل مهمة أخيه فى إعداد حملة صليبية ، وكانت الحملة فى حاجة إلى مال كثير وأراد أن يمارس حقه القديم فى فرض الضرائب الجزافية على الناس . . . ولكن الناس كانوا قد ضجوا من فداحة الضرائب التى جعلتهم على الحديدة . . . فثاروا على الملك جون عام ١٢١٥ وأجبروه على أن يوقع « الميثاق الأكبر » أو الما جنا كارتا الذى كان أول وثيقة للحريات فى المجتمع الإنجليزى . . . وأصبح القاعدة التى قامت عليها موثيق الحرية فى انجلترا . . . وبمقتضى هذا الميثاق الأعظم قيدت سلطة الملوك فى فرض الضرائب كما حد من سلطة الملك القضائية لصالح نظام التحكيم الإلهي القديم ، وأجبره الشعب على احترام حقوق جميع الطبقات . ولم يظهر فى

تاريخ انجلترا منذ ذلك الوقت ملك يجرؤ على نقض الحقوق التى نص عليها الميثاق . . وإذا أردت أن تدرك قيمة الحرية التى يتمتع بها المواطن الإنجليزى فلا بد أن تتوقف أمام نص المادة ٣٩ من نصوص الما جنا كارتا والتى جاء فيها « لا يجوز القبض على أى رجل حر أو سجنه أو نفيه أو مصادرة أملاكه أو إعدامه إلا بمقتضى حكم يصدره أئداده وطبقا لقوانين البلاد » وهذه هى المرة الأولى التى ينص فيها فى انجلترا على قاعدة عدم جواز القبض على الأشخاص أو سجنهم . . إلا طبقا للقانون . .

وأصبحت هذه القاعدة التى نص عليها الميثاق الأعظم ، حجر الزاوية فى جميع الحريات الفردية حتى يومنا هذا . . ولعلك لاحظت أن النص يقرر هذه الحقوق للأحرار - وليس العبيد ورقيق الأرض - ومع ذلك فهو يعتبر بلا ريب الوثيقة الأولى للحريات الفردية فى انجلترا ، ولم تتوقف جهود الإنجليز عند الميثاق الأعظم لأن الحرية إذا انبثقت وشعر الناس بقيمتها فسرعان ما ينهلون من معينها الذى لا ينضب ، ولذلك عمل الإنجليز على الحفاظ على حرياتهم عن طريق (برلمان) يمثلهم ، ولما كانت الضرائب هى مثار الصراع بين الملك والشعب فقد وضع الإنجليز قيودا على حق الملك فى فرض الضرائب ، فلا تكون إلا بموافقة البرلمان ، وبذلك اكتسب الشعب الإنجليزى سلاحا جديدا وناجحا يشهره فى وجه الملك كلما حدثته نفسه فى التعدى على حريات الشعب . . وكان من الطبيعى - فى ذلك الوقت المبكر - أن يكون التمثيل البرلمانى مقصورا على اللوردات ، ولكن مع تطور المجتمع وازدياد نسبة الأغنياء من عامة الشعب ، رفض هؤلاء المساهمة فى نفقات الملك طالما أنهم غير ممثلين فى البرلمان ولا تتاح لهم فرصة الإشراف على هذه النفقات ، وأصرروا على عدم دفع ضرائب إلا إذا اشتركوا فى تقريرها . . وأذعن الأشراف واللوردات لمطالب الطبقات الجديدة وسمحوا لها

بالمشاركة فى التمثيل البرلمانى وحصل الشعب الإنجليزى على مكسب جديد . . ونشأ عن ذلك (مجلس العموم) الذى كان فى بداية أمره مقصورا على العامة دون الأشراف . . فلماتين للأشراف أهمية هذا المجلس سارعوا بالدخول فيه . . وشيئا فشيئا ازدادت أهمية مجلس العموم حتى فاق مجلس اللوردات .

● ملك مغرور :

وكان لابد أن تمضى أربعة قرون على هذا التطور البرلمانى حتى ينضج على نار هادئة . . ولكن النار الهادئة تحولت إلى ثورة عارمة عندما حاول أحد الملوك المغرورين الخروج على التقاليد البرلمانية التى استقرت فى إنجلترا وأصبحت من المقدسات . . حدث ذلك عام ١٦٤٠ عندما اعتلى شارل الأول عرش إنجلترا، وكان يتمتع بروح استبدادية منفرة . . وغفل عن التطور الهائل الذى طرأ على الشعب الإنجليزى بعد اعتناقه المذهب البروتستانتى احتجاجا على فساد الكنيسة الكاثوليكية . . كان مارتن لوثر قد أعلنها ثورة ضد استبداد البابوية والكهانة . . وأعلن حق الإنسان فى أن يتصل بالله دون وساطة الكهنة . . وجرت كلمات الحرية والحق على أفواه الإنجليز ضد السلطة البابوية . . كما جرت من قبل ضد استبداد الملوك . . وفى هذا المناخ المفعم بالحرية ظهر شارل التيس ليعيد عقارب الساعة إلى الوراء ويسعى إلى التخلص من البرلمان حتى يطلق يده فى فرض الضرائب فى غيبة نواب الشعب، ولكنه فوجئ بالأصوات الحرة تصيح وتصرخ فى وجهه بأنه ليس له « حق » فى ذلك . . وأصبحت كلمة « حق » من الكلمات التى توارثها الإنجليز منذ « الحقوق » التى توصلوا إليها فى الميثاق الأعظم، بحيث يستحيل على أية قوة أن تصادرها أو تزعرها، وأعد البرلمان وثيقة لكى يوقعها الملك هى وثيقة « حق التظلم » بمقتضاها لا يجوز تكليف أى مواطن بأى ضريبة ما لم يقرها البرلمان .

نسى شارل التعيس هذا التطور الخطير، وأراد أن ينفى حق البرلمان في اعتماد الضرائب، وأراد أن يحتكر الإشراف على الجيش ليكون أدواته لضرب المدن المتمردة التي ترفض دفع الضرائب، وأصر البرلمان على حقه . . وأصر الملك على استبداده . . فكان الصدام . . وذهب شارل إلى البرلمان وقد تملكه الزهو والغرور . . وخاطب النواب من طرف أنفه قائلا:

تذكروا أن البرلمانات في يدي، أدعوها وأعقدها وأحلها، وعلى قدر ما أجد فيها من ثمرات حسنة أو سيئة أبقئها أو ألغيها . .

ثم ازداد وقاحة فقال « لاتعدوا هذا تهديدا مني . . لأنني أربأ بنفسى أن أهدد أحدا ما لم يكن مساويا لي » . .

ثم أسرف في الوقاحة فقال « إن الملك والرعية شيئان مختلفان منفصلان » ومضى شارل في استبداده، فأغلق البرلمان بالضربة . واحتفظ بالمفتاح في جيبه . ووضع على بابه لافتة (مغلق للتحسينات) وأطلق زبانيته وراء النواب يؤدبونهم على الكلمات التي قالوها تحت قبة البرلمان . . وانطلق جباة الضرائب في حماية الجيش لنهب المتاجر والمزارع والمصانع وسلب أموال الناس جهارا نهارا . . ومن يرفض يلقي في أعماق السجون . . فكانت ثورة . . وكانت دماء . .

● نسخة سيئة :

كان شارل الأول نسخة سيئة من أبيه « جيمس الأول » الذي رضع ألبان الاستبداد وتربى في أحضان الحق الإلهي للملوك، ويكره كل مايمت إلى الشعب، ويحتقر الأمة فأشعل بيده أتون الثورة التي تحولت في عهد ابنه إلى حرب أهلية قضت عليه . ولك أن تتصور ملكا يقف أمام البرلمان ويخاطب أعضائه بهذا العبارات الفاجرة:

«إن مقام الملكية هو أسمى شىء على الأرض ، لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله فحسب . . بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أربابا . . إن الملوك يُسمون بحق آلهة لأنهم يمارسون شيئا شبيها بالسلطة الإلهية على الأرض ، فإنكم لو تدبرتم فى صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة فى شخص الملك ، إن الله قادر على الخلق أو التدمير والإفناء ، على البناء والهدم ، وفق مشيئته يبعث الحياة أو يرسل الموت ، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد . . وللملوك نفس القدرة أو القوة . . إنهم يصنعون رعاياهم أو يحطمونهم ، ولهم القدرة ، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم ، وفى كل الأمور ، ومع ذلك لا يحاسبهم أحد إلا الله وحده ، ولهم السلطة فى أن يجعلوا من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيفما شاءوا ، ويرفعون أيا منهم إلى عنان السماء أو يخسفون به الأرض ، وكأنها يتصرفون فى أموالهم .

وكانت هذه خطوة إلى الوراء . . لأن النظرية السياسية فى العصور الوسطى كانت قد تطورت فجعلت الملك دوما نائبا عن الشعب صاحب السيادة .

وهكذا نسجت خيوط النزاع التاريخى بين « حقوق » الملك ، « وامتيازات » البرلمان ، وهذا النزاع الذى قدر له أن يخلق ديمقراطية انجلترا من خلال الهزائم والانتصارات ، وكانت مؤامرة الملك « شارل الأول » ضد نواب المعارضة فى مجلس العموم هى القشة التى قطعت رقبة الملك ، فقد شعر البرلمان بنيات الملك العدوانية تجاه الحياة النيابية ، وشعر الملك بنيات البرلمان ، وكان ذلك بداية الحرب الأهلية التى شهدتها انجلترا عام ١٦٤٤ ، فقد استعد الملك للحرب ومن ورائه البارونات ورجال الدين ، بينما انتفض البرلمان ومن خلفه جماهير الطبقة الوسطى التى ازدهرت وانتعشت ماليا وتملكت الثروة .

وأُسفرت الحرب بين الملك والبرلمان عن ظهور شخصية أسطورية

برزت من صفوف الفلاحين . ذلك هو « أوليفر كرومويل » الذى نجح فى تنظيم صفوف جيش نموذجى خاض به المعارك ضد الجيش الملكى وظهرت مواهبه الحربية التى رفعتة إلى مصاف عظماء القواد . كما عرف كرومويل بتسامحه الدينى فأفسح مجال الترقى أمام الجميع بصرف النظر عن انتماياتهم الدينية ، على أن البرلمان الذى استطاع أن ينال هذه الانتصارات الحربية عجز عن استثمارها سياسيا واجتماعيا ، بل إن البرلمان اتبع سياسة اضطهاد البروتستانت وحرمانهم من معاشهم ، كما أن البرلمان بدأ يحقد على الجيش ويخشى ازدياد نفوذه بعد الانتصارات التى أحرزها ، وهكذا بدأت تظهر الفرقة بين صفوف المنتصرين فى جبهتى البرلمان والجيش ، فما كان من كرومويل إلا أن طرد الأعضاء البارزين من الحزب الملكى فى مجلس العموم ، وانتزع من القلة الباقية قانونا بمحاكمة الملك وإعدامه بحجة أن شن الملك الحرب على البرلمان خيانة عظمى ، ورفض اللوردات هذا القانون على أساس أنه ليس من سلطة مجلس العموم . وعندئذ قرر النواب « إن الشعب بعد الله مصدر كل سلطة عادلة ، وإن النواب وهم يمثلون الشعب ، أصحاب السلطة العليا فى هذه الأمة ، وإنه بناء على ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون دون موافقة اللوردات أو الملك » .

وفى ٦ يناير ١٦٤٩ عين النواب ١٣٥ عضوا لمحاكمة الملك ، وأبلغ أحد الأعضاء كرومويل بأنهم ليس لديهم سلطة قانونية ليحاكموا ملكا ، فما كان من كرومويل إلا أن فقد صوابه وصاح فى وجهه قائلا : « أؤكد لك أننا سنقطع رأسه وفوقه التاج » وبذل قادة الجيش آخر محاولة لتفادى قتل الملك ، فعرضوا تبرئة « شارل » إذا وافق على بيع أراضى الأساقفة وتنازل عن حقه فى الاعتراض على قرارات البرلمان - الفيتو - ولكن الملك أجاب بأنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلا لأنه أقسم اليمين على أن يكون مخلصا لكنيسة انجلترا ، وليس ثمة من ينازع فى شجاعته .

وبدأت محاكمة الملك في ١٩ يناير ١٦٤٩ وجلس القضاة الستون على منصة مرتفعة في طرف من قاعة وستمنستر الشهيرة، واصطف الجند في الطرف الآخر، واكتظت الدهاليز والشرفات بجمهور المتفرجين، وأجلس شارل وحده، وسط القاعة، وتلا رئيس الجلسة - جون برادشو - قرار الاتهام، وطلب إلى الملك أن يجيب فأنكر سلطة المحكمة في محاكمته أو صحة تمثيلها لشعب انجلترا وقال بأن حكومة يديرها برلمان يسيطر عليه الجيش، هي أسوأ طغيانا من أى طغيان أظهره هو إطلاقا، فضجت الشرفات بالهتاف « حفظ الله الملك » ودوت المنابر باستنكار المحاكمة وشجبها، وخشى برادشو على حياته في الشوارع، وأرسل الأمير الصغير - شارل الثاني - رسالة من هولندا لاتحمل سوى توقيع، ووعد القضاة على تنفيذ أية شروط يدونونها فوق اسمه إذا هم أبقوا على حياة والده، وعرض أربعة من النبلاء أن يقدموا حياتهم فداء للملك، فرفض عرضهم، ووقع ٥٩ من القضاة - بينهم كرومويل - الحكم بالإعدام، وفي ٣٠ يناير سار الملك في هدوء إلى الموت في هوايت هول أمام جمهور غفير تملكه الرعب، وبضربة واحدة من بلطة الجلاد قطع رأسه، وكتب شاهد عيان: « لقد تعالت أنات آلاف الحاضرين وقتئذ وآهاتهم بشكل لم أعهده من قبل، وأرجو ألا أسمعه من بعد » .

● جمهورية انجلترا :

هل كان إعدام الملك شارل عملا مشروعاً؟

يجيب العلامة ول ديوارنت بقوله : إنه بطبيعة الحال لم يكن كذلك ، فإنه طبقا للقانون المعمول به يكون البرلمان - شيئا فشيئا وبشكل قاس - قد انتحل لنفسه الحقوق الملكية التي أقرتها السوابق لمائة عام ، فالثورة على التحديد أمر غير مشروع ، وليس أمامها من طريق لتدفع بالجديد إلى

الأمم . . إلا هدم القديم ، وكان شارل مخلصا في الدفاع عن السلطات التي ورثها عن اليزابيث وجيمس ، لقد أثما قدر ما أثم هو ، وكانت غلظته القاتلة أنه لم يدرك أن التوزيع الجديد للثروة ، اقتضى من أجل الاستقرار الاجتماعي توزيعا جديدا للسلطة السياسية .

وهل كان إعدام شارل عدلا ؟

يجيب ديوارنت أيضا : إذا نُحى القانون جانبا ، بالاحتكام إلى السلاح ، فقد يلتمس المغلوب الرحمة ، ولكن يمكن للغالب أن يفرض أقصى العقوبة إذا رأى أن هذا ضرورى لمنع تجدد المقاومة ، أو لتعويق الآخرين ، أو للحفاظ على حياته وحياة أتباعه . والمفروض أن أى ملك منتصر كان يمكن أن يطيح برأس كرومويل وزملائه ، وربما مع ألوان التنكيل والعذاب التي يتعرض لها عادة كل من يتهمون بالخيانة .

وهل كان الإعدام عملا حكيما؟

يقول ديوارنت : من المحتمل ألا يكون كذلك ، ومن الواضح أن كرومويل اعتقد أن بقاء الملك على قيد الحياة ، مهما يكن من اطمئنان إلى ضمان سجنه ، يمكن أن يحفز الملكيين إلى معاودة الثورة المرة بعد المرة ، ولكن كذلك سوف يكون حافزا على تجدد المقاومة من جانب ابن الملك الذي لا يمكن الوصول إليه في فرنسا أو هولندا ، والذي لم تلوّثه أخطاء والده ، والذي لابد أن تكلل هامته وشيكا بأعجاد البطولة . . إن إعدام شارل الأول أدى إلى تحول كان يمكن التنبؤ به في الشعور الوطني الذي استرد مساره على مدى أحد عشر عاما ، ويوصى التاريخ اللاحق بأن الرحمة كانت عين العقل والحكمة ، فإنه عندما وقع جيمس الثانى ابن شارل ، بالمثل ، في الخطأ الجسيم تدبرت ثورة ١٦٨٨ الأمر ، في دهاء ارسقراطى وسمحت له عمدا بالهرب إلى فرنسا ، وكان لخلعه نتائج ثابتة

دائمة، ومهما يكن من أمر، فإن الثورة السابقة - ١٦٤٩ - هي التي مكنت للثورة اللاحقة فعاليتها السريعة .

● ضد الدكتاتورية :

تلك قصة الثورة الإنجليزية التي أطاحت برأس ملك، وأجبرت آخر على الفرار، أو سهلت له الفرار على حد تعبير ديوارنت، فماذا كان مصير انجلترا بعد أن قطعت رأس الملك وأسلمت زمام أمورها إلى الرجل الحديدي أوليفر كرومويل؟ هل كان أولئك الذين قطعوا رأس الملك بسبب تعنته وغروره واحتقاره لنواب الشعب، يعلمون أنهم سيقعون في بؤرة الديكتاتورية العسكرية ممثلة في كرومويل؟ لقد أصبح الرجل هو سيد البلاد بلا منازع، فألغى الملكية، وأعلن الجمهورية، وألغى مجلس اللوردات، وألف هيئة تنفيذية مكونة من ٤١ عضواً، بينهم كرومويل نفسه، وسرعان ما نشب الصراع بين مجلس العموم والجيش، فبينما كان كرومويل يرغب في حل مجلس العموم بدعوى عدم تمثيله للشعب الإنجليزي تمثيلاً سليماً، كان المجلس يرغب في التخلص من الجيش بتسريحه، إذ كان لا يرى ضرورة لبقائه بعد انتهاء الحرب، على أن كرومويل لم يلبث أن دخل قاعة المجلس بصحبة بعض جنده في اليوم الذي حدد لتسريح الجيش، وأمر جنده بطرد النواب، ثم حل الهيئة التنفيذية، وبدأ بذلك عهد الديكتاتورية في انجلترا، التي استمرت خمس سنوات « ١٦٥٣ - ١٦٥٨ » تمتع كرومويل خلالها بسلطات مطلقة .

ولكن الشعب الإنجليزي لم يستسلم للديكتاتورية، وبدأت القوات البحرية تتمرد على النظام الجمهوري، وثار اسكتلندا وأيدت شارل الصغير ابن الملك القتيل حتى تحين الفرصة لإعادته إلى عرش انجلترا، وتململت بعض الولايات الأمريكية التابعة لبريطانيا وأبدت رغبتها في الاستقلال، واستنكرت كل من فرنسا وأسبانيا وهولندا عملية إعدام

الملك ، وبالرغم من هذه الروح العدائية استطاع كرومويل أن يثبت أركان الجمهورية عن طريق الحروب الخارجية ، وظهرت قدرة انجلترا الحربية وفاقته كل قدراتها السابقة ، مما جعل انجلترا تتميز بمركزها الحربى الممتاز بين دول أوروبا ، وأن يضعها فى مصاف الدول الاستعمارية القوية ومات كرومويل فخلفه ابنه ريتشارد وسرعان ما ظهر الضعف فى النظام الذى أوجده كرومويل ، وتبين أن البلاد كانت فى حاجة إلى شخصية قوية تستطيع إدارة البلاد فى اقتدار ، ولكن ولده لم تكن له قوة شخصية أبية وإنما كان ضعيف الشخصية ، على الرغم من أنه كان شابا محبا للخير والإصلاح ، فلم يستطع أن يسيطر على الموقف كأبيه ، وواجه صعوبات جمة لم يكن فى مقدوره مواجهتها بالحزم المطلوب ، ووقع الشاب الطيب بين حطرين : خطر الجمهوريين الذين لا يكفون عن إثارة القلاقل والانقلابات ، وخطر الملكيين الذين يحنون إلى عودة النظام الملكى ، وأخيرا الصراعات المذهبية الدينية .

● عودة الملكية :

وعندما وصل ريتشارد إلى نتيجة حاسمة وهى عجزه عن مواجهة المواقف المعقدة ، تنازل عن العرش وترك للجيش حرية التصرف ، وتولى الجنرال « مونك » الأمر - وكان محبا للملكية فكتب يستدعى شارل الثانى ابن الملك القتيل من منفاه بهولندا ، واستجاب شارل للطلب وعاد بسرعة إلى انجلترا وجلس على عرش أبيه وكان مثله فى الميل إلى الحكم المطلق والاستبداد بالرأى ، وعلى الرغم من المصير السيئ الذى لاقاه أبوه ، فإن الابن لم يتعظ واستأنف مسيرة أجداده فى الاستبداد ، وبلغت به الخسة أن عمد إلى الانتقام من كل من رفعوا أصواتهم فى العهد الجمهورى ، ومنهم الشاعر الإنجليزى العظيم « ملتون » الذى رصد ماتبقى من عمره بعد إعدام تشارل الأول للدفاع عن الحرية والكرامة الإنسانية ، ووضع كتابه

الشهير « دفاع عن الشعب الإنجليزى » ثم أردفه بكتاب آخر فى الدفاع عن الأحرار والثوار وهم الشعب كله . . وفقد ملتون بصره وعانى الفقر والفاقة فكتب إلى صديق له : « إنه يتحمل هذه العاهة راضيا لأنه يحس بأنه أرهق عينيه للذود عن الحرية ، هذا الواجب العظيم » ، ولم يرحم الملك العائد شيخوخة الشاعر الجليل وعماه وفقره ، فاستدعاه ليستمتع بإذلاله وقال له : ألسنت ترى أن ما تعانيه من فاقة وعمى هو الجزاء الذى قضى به الله عليك انتقاما لما كتبتة عن أبى !!

فما كان من الشاعر الكبير إلا أن قال له : إذا كان هذا جزائى عما قلت عن أبيك . . فكم كانت جرائم أبيك التى استحق عليها الإعدام . . ؟

وبهت الملك الصغير . وانتصر صولجان الشاعر على صولجان الملك !

● إعلان الحقوق :

وبعد وفاة شارل الثانى خلفه أخوه فأراد أن يخلف أباه فى الاستبداد . . ولكن الإنجليز كانوا له بالمرصاد . . فلما رأى العين الحمراء رأى السلامة فى الفرار . . فنجد بجلده وهرب إلى فرنسا فى سنة ١٦٨٩ . . عندئذ عرض الإنجليز العرش على الأمير وليم أورانج وزوجته ماري . . ووجدها الإنجليز فرصة للحصول على مزيد من الحقوق وتنظيم العلاقة بين الشعب والعرش بشكل نهائى . . وأسفرت الصفقة عن وثيقة « إعلان الحقوق » التى تضمنت بعض المبادئ التى كانت ركيزة النظام البرلمانى الديمقراطى فى انجلترا وهى :

* عقد البرلمان بين الفينة والفينة .

* حرية الانتخابات البرلمانية .

* حرية الرأى لأعضاء البرلمان والحصانة البرلمانية فلا يجوز محاكمتهم من أجل خطبهم .

* ضرورة إقرار البرلمان لجواز جباية أية ضريبة .

* ضرورة موافقة البرلمان لكى يجوز للملك حشد جيش فى أيام السلم أو استبقاؤه .

* ليس للملك أن يوقف القوانين أو يعفى أحدا من الخضوع لها . .

* وقبل وليم أورانج وزوجته مارى هذه الوثيقة ، فتم تتويجها ، وبذلك أصبحت سلطة ملك انجلترا خاضعة لسلطة القانون . . وأنت ترى من ذلك أن الإنجليز لم يصلوا إلى هذه النتائج الباهرة إلا عبر كفاح مرير ضد الاستبداد . . واستطاعوا بصبرهم وجهادهم أن يحصلوا على هذه الوثائق التى تدور كلها حول تقييد سلطة الملك دون سلطة البرلمان . . وهوما يتميز به النظام الإنجليزى . .

لقد أصبح النظام البرلمانى الإنجليزى النموذج الأمثل لكل الأنظمة البرلمانية فى العالم أجمع . ونموذجا للديمقراطية التى تعصم الشعب والحاكم من الاستبداد . بالرغم من السلطة المطلقة التى يتمتع بها البرلمان الإنجليزى حتى يقال فى ذلك إن البرلمان الإنجليزى يستطيع أن يفعل كل شىء إلا شيئا واحدا . . هو قلب الرجل إلى امرأة . . والمرأة إلى رجل . . ولكنه يستطيع أن يفعل مادون ذلك . . وكما يقولون أيضا ليس المنطق هو الذى يحكم انجلترا . . وإنما يحكمها البرلمان .

أما عن سلطة الملك فهو لا يزال حتى الآن يتمتع بالأفكار التى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، أى أنه معصوم من الخطأ ، وذاته مصونة لا تمس ولا يخضع للمحاكمة إذا قتل أحد رعاياه ولا يسأل إلا أمام الله . . كل ذلك مسجل فى الوثائق . . ولكن رشد الشعب الإنجليزى . . والدروس التى تلقتها الملكية على مر القرون . . كانت كافية لتجعل هذه النصوص مجرد حبر على ورق .

فالقضية - عندهم - ليست قضية نصوص تكتب على الورق ، ولكنها قضية تقاليد وأعراف وقرت في النفوس إلى درجة التقديس حتى يستحيل التفريط فيها أو المساس بها تحت أى ظرف من الظروف . . لامن جانب البرلمان . . ولا من جانب الملك . . وأنت ترى عند الدول التى تتمسح فى الديمقراطية وترفع شعاراتها ، دساتير تفوق الدستور الإنجليزى إشادة بالحرية ، وتغنيا بالديمقراطية وإسرافا فى الحقوق العامة ، ولكن كل ذلك كلام فى كلام . . وهو لغو لايساوى ثمن الورق الذى كتب عليه . . لأن كل هذه الحقوق تتوقف على إرادة الحاكم . . إذا شاء منعها . . وإذا شاء منعها . . والمبادئ العظيمة المنصوص عليها فى الدستور تصبح عديمة المفعول عن طريق القوانين سيئة السمعة التى يصدرها الحاكم كلما توجس خيفة من شبح الحرية .

ومناط الأمر كله متروك لوعى الشعب ، وقوة رأى العام ، واستنارة الحاكم إذا علم أن الحرية هى وحدها السياج الذى يحمى الدولة من ثورة الشعب وجور الحاكم ، وهى وحدها المناخ الصالح لخلق شعب عظيم . . وحاكم عظيم . .

محاكم التفتيش

من منكم لم يسمع عن محاكم التفتيش . . أبشع ما عرفت الإنسانية من صور القمع والقهر والتنكيل بالمخالفين؟ . . من منكم لم يقشعر بدنه وهو يسمع عن الطغاة الذين جلسوا في مقاعد القضاة وأخذوا يحاكمون الناس على ما تنطوى عليه صدورهم من عقائد وأفكار مستخدمين في ذلك الحيل والألاعيب للإيقاع بالمخالفين وانتزاع اعترافاتهم قسرا . . ثم يحكمون عليهم بالموت حرقا على مشهد من الملأ حتى يكونوا عبرة لمن تسول له نفسه مجرد التفكير في مخالفة سلطان الكنيسة .

الصفحة السوداء في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى باتت مضرب الأمثال على بشاعة الإرهاب الدينى الذى ساد المجتمعات الأوروبية فأخذ جذوة التفكير . وضرب على العقول بأقفال من حديد، وانحط بالأخلاق إلى درجة صار فيها الابن لايتورع عن الوشاية بأبيه، والزوجة بزوجها، وأشاع الذعر حتى كان الناس يهيمون على وجوههم فى الفلوات رعبا من شبهة الاتهام. وكان المتهمون يتعجلون الموت حرقا فرارا بأرواحهم من فظاعة التعذيب . .

وظلت أسطورة محاكم التفتيش حية فى وجدانى . تؤرقنى فى منامى . وتعذب ضميرى كمثقف يرى من حق كل إنسان أن يفكر ويجتهد ويعتق رأى الذى يظنه صحيحا دون المساس بحق الآخرين فى التفكير والاجتهاد. وكانت هذه المحنة الفكرية تحفزنى على الانتصار لقضية الحرية فى شتى صورها. وتدفعنى دفعا إلى الوقوف فى خندق العدالة

دفاعا عن حق الإنسان فى التفكير والقول والعمل . والوقوف فى وجه كل محاولة قهرية تחדش الحقوق الفطرية التى فطر الله الناس عليها . .

حدث كل ذلك دون أن أعرف الظروف التاريخية التى سمحت بظهور هذه الوصمة السوداء فى تاريخ المجتمعات الأوروبية . وكانت معلوماتى عنها مستقاة من تعليقات ترد عرضا فى كتابات المفكرين الأحرار دون أن يتوفر لى مرجع متخصص فى تاريخ محاكم التفتيش حتى وقع فى يدي كتاب « محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها » للدكتور إسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس . . وهو كتاب وثائقى يعتمد على الدراسات الأوروبية والأمريكية التى توفرت على فحص ماتبقى من أوراق ووثائق محاكم التفتيش ، وبالرغم من أن أغلب معلوماتنا عن المتهمين الذين حوكموا أمام هذه المحاكم مستقاة من أقلام أعدائهم بعد حرق أوراقهم . إلا أنه بالفحص الدقيق للوثائق أمكن استخلاص صورة دقيقة لهذه الفتنة التى راح ضحيتها عشرات الألوف من الأبرياء الذين كانت كل جريمتهم أنهم ضاقوا ذرعا بالنظم الدينية الفاسدة والمظالم الاجتماعية التى سادت أوروبا فى العصر الوسيط فراحوا يبشرون بقرب انبلاج فجر جديد تتحقق فيه العدالة والحرية والطهارة الفكرية ولم تتحمل سلطات الكنيسة الرومانية وطأة هذه الأفكار الجديدة فراحوا - تساندها السلطات الحكومية - تطارد هؤلاء الأحرار وتدمغهم بتهمة « الهرطقة » وتقدمهم أفواجا أفواجا إلى تلك المحاكم الهزلية لتلقى بهم طعمة للنيران . ثم تصادر أملاكهم وتضم إلى خزانة الملوك . وبذلك صارت الهرطقة « دمغة » يدان بها الناس لاغتصاب أملاكهم ، وتكونت من التاج والكنيسة عصابة للنهب والسطو تحت قناع الدين .

● معنى الهرطقة :

وإذا كان من الشائع أن محاكم التفتيش قد ظهرت فى أوروبا فى القرن

الثانى عشر إلا أن البحث فى أضابير الكنيسة الرومانية أثبت أن فكرة اضطهاد الرأى المخالف لرأى الكنيسة أقدم من ذلك وتعود إلى القرن الرابع حيث ظهرت فى آفاق الكنيسة تهمة (الهرطقة) وإصاقها بالمخالفين تمهيدا لإدانتهم . والهرطقة كلمة يونانية معناها « الرأى المستقل » أو « الاجتهاد » فى فهم النصوص . ومع أن الكلمة طيبة فى مضمونها الأصلى وتعنى استقلال الرأى وحرية التفكير . إلا أن الكنيسة الرومانية استعملت هذا اللفظ لدمغ المخالفين الذين لا تتفق آراؤهم مع تعاليم الكنيسة . وفى هذا الوقت المبكر لم تكن تهمة الهرطقة تؤدى إلى عقوبة الموت . واكتفى آباء الكنيسة بعقوبتى الجلد والغرامة . ولكن مع نهاية القرن العاشر بدأت موجة الاضطهاد للمخالفين تنجح نحو العنف والحرق وسفك الدماء . وفى أثناء ذلك كانت المجتمعات الأوروبية تفور بالتمرد على المظالم الإقطاعية ، وأخذت المدن الحديثة فى النمو والتحرر والاستقلال عن سيطرة الأساقفة والنبلاء الإقطاعيين . وكانت الجامعات ترعى الأفكار الحرة وتشجع أبناءها على استقلال الرأى وحرية البحث رغم أنف رجال اللاهوت . وسرت فى أنحاء القارة روح التمرد والغضب وظهرت إرهاباتها فى الأعمال الأدبية التى كان أشهرها الكوميديا الإلهية للشاعر الفلورنسى الشهير « دانتي » . كما ظهرت روح البحث العلمى فى أفكار روجر بيكون وغيره من علماء الاستنارة العقلية . وكان « دانتي » أحد ضحايا محاكم التفتيش التى حكمت عليه بالنفى عام ١٣٠٢ .

وفى نفس الوقت كانت نقابات العمال والحرفيين تنشد لحن المساواة والتحرر من قيود الإقطاع . وكان من الطبيعى أن تفرز كل هذه التطورات أجيالا جديدة من المتمردين الساخطين الذين عرفوا باسم « الأطهار » أو « الأنقياء » الذين رفضوا حياة البذخ والسفه التى كان يعيش فيها كبار رجال الدين وأمرأء الإقطاع وارتفعت فى أرجاء القارة صيحات العودة إلى بساطة المسيحية الأولى ونقاؤها وزهدها .

واختلطت أفكار « الأطهار » ببعض المعتقدات القديمة التي وفدت على القارة الأوروبية من الشرق كالمناوية والمزدكية والبوذية . وتأثروا بها كانت تدعو إليه هذه الأفكار الشرقية من زهد في الحياة الدنيا والبعد عن صخب الحياة الاجتماعية . فامتنعوا عن الزواج وبالغوا في التقشف حتى حرموا على أنفسهم الطعام باستثناء الخبز والماء وتجنبوا لمس النساء . واعتزلوا حياة المدن التي كانت تضج بالثراء والرخاء وما نتج عنهما من انحلال وفجور . وسلك الأطهار في سبيل ذلك طريقين : أولهما الهرب إلى قمم الجبال والبراري والانخراط في جماعات الرهبان ، وهؤلاء هم المثاليون المتطلعون إلى المدينة الفاضلة في ملكوت السماء .

أما الطريق الثاني فكان الانضواء تحت لواء فرق « الهراطقة » وهم جماعات الثوار - وفق مفهوم العصر الحديث - الذين قبلوا التحدي ودخلوا في صراع رهيب ضد النظم الكنسية والعلمانية المستبدة . وكان يجمع الطائفتين في صعيد واحد ذلك الضمير المتمرد الساخط . وإن اختلف أسلوب التمرد . وقد تدهش عندما تكتشف أنهم كانوا أقرب الناس إلى جوهر الدين المسيحي وبساطته الأولى قبل أن تتناوله الكنيسة بأساليب الكهانة والوصاية على الأرض . وقد عبر أحد هؤلاء الأطهار عن فكر جماعته بهذه الكلمات : نحن قوم مؤمنون وخدام للملك ، ومسيحيون حقيقيون . لسنا نريد أبدا أن نقلد هؤلاء الذين وطئوا بأقدامهم على الإنجيل ، أو أولئك الذين نبذوا تراث الرسل ، إنما نحن ننشد حياة تقوم على الزهد والطهر كما كانت الحال في الأيام البكرة للإيمان القويم .

● نظرة موضوعية :

وإزاء هذه الأفكار المتحررة التي تهدد كيان الكنيسة الرومانية من أساسها ، بل وتلغى مبرر وجودها أصلا - يقول الدكتور إسحق عبيد

كان طبيعيا أن تنزعج الدوائر الكنسية في غرب أوروبا . فهرعت منقضة تستخدم أسلحتها التقليدية من لعنة وقطع وحرمان وحملات صليبية ومحاكم تفتيش إرهابية ضد هؤلاء « الثوار » الذين دمغتهم بالهرطقة لتبرر ضربهم بالحديد والنار، فهل كانت الكنيسة الرومانية محقة في مسلكها هذا . . أم ظالمة . . ؟

يجيب الدكتور عبيد عن هذا السؤال فيقول : لعل المؤرخ الموضوعي لا يجد غضاضة في مسلك البابوية والكنيسة في الدفاع عن كيانهما وعقيدتهما لو أنها أعطتا المثل الطيب في سلوكهما الذاتى . ولكن واقع الأمر يشير إلى عكس ذلك تماما . لقد وصلت البابوية إلى الدرك الأدنى في وحل الرشوة والدعة والفجور، وبات الفاتيكان بيت سوء . ثم يضرب أمثلة عديدة على الفساد الخلقى لبعض البابوات وانحذارهم في مستنقع الرذيلة من ناحيتى المال والجنس . ويكفى أن نشير فقط إلى طرف من سيرة واحد من البابوات الفاسدين هو اسكندر بورجيا الذى تولى العرش البابوى سنة ١٤٩٢ باسم البابا « اسكندر السادس » فكانت ولايته على هذا المنصب الجليل نكبة خلقية كبرى . فقد عرف عنه أنه لم يكن يطيق حضور صلوات القداس ، وإن اضطر إلى الحضور فإن الصلاة تختصر إلى نصف ساعة ، أما عن سلوكه الشخصى فكان سبة في وجه الكنيسة البابوية ، فقد كان مغرما بالنساء ، ويحيط نفسه بالراقصات حتى أنه لم يكن ينام فى فراشه بمفرده ، وقد أثمرت علاقاته غير الشرعية أبناء لقطاع كثيرين ، ولم يكن البابا اسكندر السادس - كما يذكر معاصروه - يتورع عن مسلك الفجور فى العلن ، بل فى وجود بناته وأفراد حاشيته الفاسدة ، ولذا فقد أشارت إليه بعض الأصابع بالاعتداء على المحارم ، كما اشتهر عنه - مثلما قيل عن سلفه سكستوس - الولع بالغلغان ، مما أعاد إلى الأذهان الطريقة الإغريقية القديمة . أما عن ذمته المالية فحدث ولا حرج ، فكان يبيع منصب الكرادلة بالمال ، حتى بلغت الرشوة فى هذا

الصعيد مبلغ مليون ومائتى ألف مارك من الذهب ، كما اعتاد الاستيلاء على أملاك وأموال الأساقفة الأغنياء عقب وفاتهم ، ولم يكن يتورع عن دس السم لمن يريد التملص منه من معارفه لكى يرث أملاكه ، ولم يسلم من هذا الجرم علمانى أو رجل دين فى روما ، وكان فى روما صيادلة مرموقون متخصصون فى إعداد هذا السم الخاص الذى ذاع صيته تحت اسم خاص هو «كانتاريلا» ، ويروى أن اسكندر السادس (بورجيا) قد أعد هو وابنه قيصر بورجيا السم للتخلص من الكاردينال هادريان ، ولكن القدر تدخل فشرب الكاردينال - خطأ - من الكأس السليم ، وتجرع البابا وابنه من الكأس المسمومة ، فكانت نهاية هذا البابا الفاسد .

على هذه الشاكلة الذميمة تردى الفاتيكان وسيده وكرادلته ، ومن أجل ذلك أخذت صيحة الإصلاح تعلو إلى عنان السماء تطالب بالتغيير ، وتبشر بفجر جديد ، ولم تفلح أساليب الإرهاب والقمع فى ظل محاكم التفتيش فى تعطيل مسار التاريخ والانعتاق من أغلال الكنيسة الرومانية .

● قيام محاكم التفتيش :

وينتقل المؤلف إلى الحديث عن قيام محاكم التفتيش على أيدي البابا لوسيوس الثالث ثم البابا انوسنت الثالث فى عام ١٢١٥ . فكان المتبع أن تقبض السلطات الكنسية « للتفتيش » على المتهم - أى تقصى أفكاره ومعتقداته - وتحاكمه ، فإن تمت إدانته يسلم إلى السلطات الأمنية لإحراقه بالنار ، وكان تشكيل محكمة التفتيش على الوجه الآتى :

المفتش الكنسى مفوض من قبل البابوية ، ومنها يستمد صلاحياته فى الربط والإدانة ، وهو أشبه ما يكون بالقاضى ، وتكون المنطقة التى يقوم بالتفتيش عليها خاضعة لأوامره دون تدخل من أساقفتها أو أمرائها الإقطاعيين أو قضاتها المدنيين . والمفتش الكنسى هو الذى يوجه

الاتهام، ويحكم في القضايا، ويصدر الإدانة وكان يعاون المفتش العام نفر من المتخصصين هم نائب المفتش والمسجل القانوني . والمستشار القانوني . والمحلفون . وتستعين المحكمة بعدد من الضباط والمخبرين والسجانين، ويلعب المخبرون دورا خطيرا في مهام المحكمة، فهم يسافرون متنكرين لتعصب « الأطهار » الهاريين والاختلاط بهم ثم يعودون إلى المحكمة لكتابة التقارير ضد المتهمين .

ولوحظ أن نفرا قليلا من هؤلاء المفتشين كانوا « أطهارا » سابقين ثم تنكروا فيما بعد لمبادئهم وعين بعضهم في منصب المفتش العام لإرهاب الجماعة . فكانت البابوية في هذا في غاية الدهاء . إذ إن مثل هؤلاء « المرتدين » كانوا على علم بخفايا جماعاتهم وبممارساتهم الخفية قبل العلنية فكانوا أشد وطأة على زملائهم السابقين .

وكان سير المحاكمة يبدأ بوصول محكمة التفتيش إلى المنطقة التي تشير التقارير إلى وجود « الأطهار » فيها .

ويفتح المفتش أعماله بإلقاء عظة عامة على مسامع أهل البلدة . يدعو فيها من تساوره أفكار مهرطقة إلى المبادرة بالاعتراف والندم طواعية أمام المحكمة، ويمهل هؤلاء لمدة شهر . وعرفت باسم « مهلة الرحمة والغفران » . ومن يتقدم طواعية للاعتراف يحكم عليه بحكم مخفف من الصيام وإعلان التوبة بشرط أن يكون ممن يعتنقون آراء مهرطقة غير معلن عنها جهارا .

أما الذين عرف عنهم الجهر بالمهرطقة فيحكم عليهم بالسجن المؤبد . وأما المكابرون الذين لا يقدمون للاعتراف أمام المحكمة فإنهم يستدعون إلى المحكمة عن طريق رجل الدين المنوط بالمنطقة، فإذا هرب تعقبته أجهزة المحكمة حتى يقبض عليه، ثم يواجه المحكمة بأن يؤدي قسما على الأناجيل الأربعة بأن « ينطق بالحق عن نفسه وعن غيره من الأحياء ومن الأموات على حد سواء » .

ولكل فئة مهرطقة أسئلة خاصة معدة مسبقا عند المفتش . . وطبيعة فكر هذه الفئة أو تلك بالذات . . وعلى المفتش أن يمكر ويراوغ مع المتهمين حتى يحصل منهم على ما يريد من اعتراف . فهو تارة يخاطبهم بأسلوب معسول . ويلوح لهم بوعده من الغفران والصفح ، وقد يأمرهم بطعام فاخر وقت احتجازهم للتحقيق . وقد نجحت أساليب محاكم التفتيش في جر الأب لأن يشهد على ابنه ، والابن على أبويه . . والزوج ضد زوجته ، والزوجة على رجلها . وتحتفظ سجلات محاكم التفتيش برسالة من البابا جريجورى التاسع يهنئ المفتش العام على نجاحه المنقطع النظير في إرهاب الناس حتى شهد الكثيرون ضد ذويهم من لحمهم ودمهم .

وشهدت محاكم التفتيش أطفالا في سن العاشرة يشهدون ضد آبائهم وإخوتهم ، ويكفى للإدانة ضد المتهم شهادة شاهدين أو ثلاثة على أكثر تقدير . وفي أغلب الأحيان لا يواجه المتهم بالشهود . . !! حفاظا على سلامة صاحب الشهادة .

● حق التعذيب :

ولمحكمة التفتيش الحق كل الحق في أن تستخدم أساليب الإرهاب والتعذيب لكى تحصل من المتهم على الاعتراف بإثمه ، ومن قبيل ذلك احتجاز المتهم في سجن خشن ضيق حيث يقيد بالأغلال ويحرم من الطعام والشراب والنوم في زنانات خائقة لا تكاد تسمح مساحتها لمجرد الوقوف على القدمين . وقد جرى المثل بين رجالات محكمة التفتيش بأن «البلاء يفتح الأفواه المغلقة للاعتراف» . فإذا فشلت الأساليب السابقة . لجأت المحكمة إلى درجات أشد وأقسى . . وقد اكتسبت هذه الأساليب شرعيتها من خلال المرسوم الذى أصدره البابا انوسنت الرابع في ١٥ مايو

١٢٥٢ وأقر فيه أسلوب التعذيب . وصدق على هذا المرسوم خلفاؤه . ومن هذه الأساليب تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط . ومنها دفع المتهم إلى مكان عال ثم الرمي به ليهوى على الأرض ، ومنها الكى بشعلة نار ملتهبة ، ومنها طرح المتهم على منصة في وضع مثلث مع ربطه بحبل يلتف عقدا حول جميع أعضاء جسده . . وينتهى الحبل المعقود برافعة تلم كل الشمل فإن لمست الرافعة رضرضت أعضاء الجسم الموثق . وقد تمزقها تماما . وقد يوثق المتهم وساعده مقيدان وراء ظهره ثم يرفع إلى ربوة عالية . ومنها يركل ليسقط على الأرض ، وأحيانا كانت تربط الأثقال في قدمي المعتذب الموثق حتى يكون سقوطه مروعا ومرديا .

وعرف من وسائل التعذيب أيضا تعريض قدمي المتهم - بعد طلائها بالشحم - إلى نار ملتهبة ، وبعد جرعة من هذا المس بنار جهنم يسدل ساتر من الحديد لحجز اللهب عن قدمي المعتذب . وهنا يظهر المفتش لانتزاع الاعتراف من المتهم . وفي كثير من الأحيان كان المتهم يموت من العذاب والإرهاب قبل أن يدلي باعتراف ما للمحكمة .

والقصص وفيرة عن أبطال تحملوا هذا العنت والجرم دون أن تنبس شفاههم بصرخة أو حتى مجرد اعتراف . . والغريب في الأمر بعد كل هذا - أن المحكمة تسجل في سجلاتها أن المتهم أدلى باعترافه طوعية ودون تعذيب على الإطلاق . وبعد هذه الإجراءات تصدر المحكمة حكمها في مكان عام من البلدة بفم المفتش وكانت أغلب الأحكام بالموت حرقا .

وينبه الدكتور إسحق عبيد إلى أن الكنيسة الرومانية كانت في غاية الدهاء لأنها بعد أن تصدر الحكم على المتهم تعهد إلى السلطات الحكومية لتقوم بتنفيذ الإعدام حتى توهم البسطاء بأنها قد غسلت يديها من دم الضحايا .

ولم تكن محاكم التفتيش تقنع بهذه العقوبات على المتهم . وإنما كانت العقوبة تمتد إلى أولاده وإلى جيرانه . فكانت أحكام مصادرة الأملاك

والأموال تحرم أبناء المتهم من وراثة أبيهم حتى لو كانوا أبرياء من تهمة الهرطقة، كذلك لجأت البابوية إلى هدم منازل الهرطقة والمنازل المجاورة لها. خشية أن تكون قد تلوثت بوباء الهرطقة (!!).

ولكن البابا اسكندر الرابع تراجع عن هذا القرار عندما اكتشف أنه سيؤدي إلى هدم قرى ومدن بأكملها. وأخيرا لجأت محاكم التفتيش إلى إحراق جثث الموتى من المهرطقين خشية أن يصاب المكان الذي يضم رفات الهرطيق بالدنس، ومن ثم تقرر أن يكون الهرطيق وقودا للنار، ونحن نعلم أن قبورا عدة قد نبشت وأن جثثا كثيرة قد أهينت حرمتها في الطرقات وسط قرع الطبول ولهب المحرقة..!!

● زواج غير مقدس :

كانت وصمة محاكم التفتيش نتاج زواج غير مقدس بين الكيسة الرومانية، وملوك أوروبا، وقد اتفقت إرادة المؤسسة الدينية والمؤسسة الزمنية على إخماد أصوات التحرر والتمرد، وكبت صوت المعارضة الفكرية، واقتسام الغنيمة بعد مصادرة أملاك الضحايا، واستباحة أموالهم وممتلكاتهم وتوزيعها على الفرسان والبارونات المفلسين الذين كانوا يتلهفون على تملك الأراضي المصادرة. ويعنينا من هؤلاء الملوك لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد الحملة الصليبية على مصر، وتمت هزيمته في المنصورة، ويصفه الدكتور إسحق عبيد بأنه كان أسوأ حاكم علماني شجع على تثبيت أقدام محاكم التفتيش لكي يرضى بابوات روما، وقد أوكل مهمة التفتيش والمحاكمة إلى رهبان الدومينيكان الذين أزهبوا صغار القسيسين وبسطاء الناس بجبروتهم وبالتكشير عن أنيابهم وأرسلوا إلى المحرقة أعدادا لا تحصى بتهمة الهرطقة.

وقد شمل لويس التاسع، وأمه بلانش القشتالية، مفتشى تلك المحاكم بالعطف والحماية، وخول الملك الفرنسي رجلا يدعى (روبرت

لى بتى) صلاحيات طائلة كمفتش عام ، والغريب فى الأمر أن هذا الرجل كان فى الأصل هرطيقا سابقا ، ثم انقلب على زملائه وشنق منهم ١٨٣ نفسا دفعة واحدة فى مقاطعة شامباني وحدها .

أما ملك فرنسا فيليب الرابع (الجميل) فقد انفتحت شهيته للاستيلاء على أموال فرقة الداوية Templiers الذين شاركوا فى الحملة الصليبية على الشرق الإسلامى ، وعادوا إلى موطنهم فرنسا بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ م فى يدى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، وكانوا قد جمعوا أموالا طائلة من مغامراتهم الصليبية حتى صاروا من أغنى الجماعات الدينية فى فرنسا ، ويقال إنهم استثمروا أموالهم أيضا فى عمليات الربا ، وسال لعاب فيليب الجميل على أموال (الداوية) المعروفين باسم فرسان المعبد ، خاصة وقد كان بينهم ألفان من خيرة الفرسان لا يخضعون للتاج الفرنسى ، ولجأ فيليب الملك إلى أحط الوسائل للسطو على أموالهم ، فكلف وزيره (نوجارت) بتليفق الاتهامات ضد جماعة الداوية كى يستصدر قرارا من البابا للقضاء عليهم تماما ومصادرة أملاكهم وأموالهم ، ونفذ الوزير مطلب الملك ، وأعد قائمة بالاتهامات والأدلة الملفقة ضدهم ، وبعث الملك بالقائمة إلى البابا كلفت الخامس مع طلب بإصدار مرسوم بابوى بإدانة هذه الجماعة واستحلال أموالها ، وقام نوجارت بالقبض على كل أفراد الداوية وأودعهم السجن ، ثم أذاع قائمة اتهامهم بالهرطقة وعبادة الشيطان والانحلال الخلقي والفجور ، وتعرض الرهبان لصنوف من التعذيب داخل زناياتهم ، إلى حد أن واحدا من أبناء الداوية عندما بلغ به العذاب مداه صاح مستغيثا : « إننى على استعداد لأعترف لكم بأننى قد قتلت الله ، شريطة أن تكفوا عن تعذيبى وترحمونى من الإحراق بالنار » .

المرأة الحديثة

لا أتصور مواطنا في عالمنا المعاصر لم يسمع بهذه العبارة « أيتها الحرية .. ما أكثر الجرائم التي ترتكب باسمك .. » ولا أظن إنسانا خاض بحر السياسة لم يردد هذه العبارة وهو يرى أعلام الحرية تسقط وتداس بأقدام من رفعوا لواءها من قبل .. ويرى أرواح الأحرار تزهب، ورءوسهم تسحق بأيدي السفاحين الذين لبسوا يوما رداء الحرية ورددوا شعاراتها .. وارتفعت حناجرهم بحياتها .. ثم أصبحوا من ألد أعدائها .. وأفجر خصومها ..

فمن قائلة هذه العبارة .. ؟ ولماذا هتفت بها .. ؟ وما هي الظروف التي جعلتها تصرخ بهذه الصيحة فأصبحت من أشهر عبارات القاموس السياسى .. وجرت في التاريخ مجرى الأمثال .. ثم .. كيف تكون الحرية مصدرا للجريمة مع أنها الوعاء المقدس الذي تتخمر فيه ثلاثية القيم العليا التي تهفو إليها الإنسانية وأعنى بها قيم الحق والخير والجمال .. فليس من المتصور أن يكون الحق مصدرا للظلم .. كما يستحيل أن يكون النور مصدرا للظلام .. ولا يمكن أن يثمر الخير شرا .. والجمال قبحا .. ولكن كل تلك القيم الرفيعة تتحول إلى أضدادها على أيدي زمرة من البشر أشبه بالحواة يملكون القدرة على تزييف الحقيقة .. ومسح الجمال .. وتشويه الخير ..

صاحبة تلك العبارة التاريخية هي « مدام رولان » أغرب امرأة في تاريخ

الثورة الفرنسية . . وإحدى أشهر ثلاث نساء حزت المقصلة أعناقهن الناعمة . . أما أولاهن فهى الملكة نفسها . . مارى انطوانيت . . والثانية كانت الفدائية شارلوت كورداي التى اغتالت وحش الثورة المفترس «ماراه» لتخلص الناس من شره ، والثالثة مانون مارى جان فيليبون . . أو مدام رولان صاحبة الصيحة الشهيرة عن الجرائم التى ارتكبتها الثورة باسم الحرية . . والتى هى موضوع حديثنا . .

لم تكن مدام رولان رائعة الحسن والجمال . . ولكنها كانت سيدة مثقفة شغلتهها هموم السياسة وفنون الأدب وقضايا الفكر عن اهتمامات بنات جنسها . . فمنذ صباها الباكر استوعبت آثار رواد الفكر الفرنسى الحديث الذين بشروا بعصر الحرية والمساواة والعدالة ورحلوا قبل سنوات من اشتعال الثورة ، وكأنما أشفق عليهم القدر فأماتهم قبل أن يروا أفكارهم وهى تستخدم فى أيدى قادة الإرهاب كمعاول لسحق الحرية وهدم المساواة ومسح العدالة ، وإذا بالثورة التى بشروا بها تتحول إلى مجزرة كبرى لم تشهد لها البشرية مثيلا من قبل . . والمؤسف أن مدام رولان التى شغفت فى صباها بأفكار روسو فاعتنقتها عن إيمان وعقيدة ، والتى عاشت تحلم باليوم الذى تتحول فيه هذه الأفكار الرائعة إلى حقائق ملموسة . . ألقت بنفسها فى أتون الثورة بكل ما تملك من عواطف المرأة وجنوحها وتهورها . . وأصبح صوتها من أشد الأصوات تطرفا وعنفا . . وجرفها تيار الإرهاب الذى جنحت إليه الثورة فمضت فيه بلا تردد . . ولم تتخيل أن تحترق بالنار التى ساهمت فى إشعالها . . وأن تمضى على نفس الطريق - إلى المقصلة - الذى دفعت إليه آلاف الضحايا الأبرياء باسم الحرية والعدالة والمساواة . .

جاءت مانون من بلدها ليون إلى باريس فى فجر الثورة بصحبة زوجها مسيو رولان ، وكان رجلا مشوها يثير من السخرية أكثر مما يثير من الاحترام ويكبرها بعشرين عاما ، وقد تزوجته لا عن حب ، ولكن ليكون

ظلا تحتوى به من كلام الناس وهم يرونها تخوض مجالا مثيرا للريب والشكوك، وسرعان ما تحول بيتهما في باريس إلى صالون يرتاده الشعراء والأدباء ورجال السياسة وكل العناصر المتطرفة التى يحرقها الشوق إلى عصر جديد ولا ترى سبيلا إلى غايتها غير الدم . والتقت أهداف مدام رولان مع أهداف أعضاء الجمعية الوطنية من حزب (الجيرونديين) الذين وجدوا فيها مصدر إلهام لكل ما كان يختمر في أذهانهم من رغبة في هدم النظام القديم ، وقيام عهد جديد على الأسس التى أرساها آباء الفكر الفرنسى : فولتير وروسو ومونتسكيو وأصحاب الموسوعة . . ولكن أزمة هؤلاء (الجيرونديين) أنهم كانوا مثل صاحبتهم أقرب إلى شعراء العصر الرومانسى منهم إلى السياسيين الذين عركتهم التجارب ، وصقلتهم المحن ، كانوا رجال فكر وقانون وبلاغة وشعر وحماسة هوجاء . . يعتلى أحدهم المنبر هادئا رزينا . . ثم لا يكاد يلقى بعض العبارات المنمقة حتى تلهب حماسة الجماهير . . ثم لا يلبث صاحبنا أن يفقد رزائته واعتداله وينساق وراء تصفيق الدهماء فيتحول إلى شعلة حماس تدعو إلى التدمير والقتل ، وإذا بالجيرونديين الذين كانوا دعاة الحرية والعدل يتحولون إلى دعاة للإرهاب والتهور والعنف ، دون أن يدركوا مغبة الطريق الذى شقوه بأنفسهم . . أو إن شئت الدقة فإنهم لم يدركوا عمق المقبرة التى حفروها لأنفسهم .

وقف أحدهم يوما يهيب بنواب الأمة أن يخوضوا بحر الدم فقال : « إن الحرية شجرة لاتنبت إلا إذا رويت بالدم ، فابتروا العضو الفاسد منكم ليظل باقى الجسد سليما » ولم يعلم هذا النائب الأهوج أن هذه العبارة ستكون سلاحا يستخدم فى بتره وبتر إخوانه حين ساقهم خصومهم ليبتروهم بسكين المقصلة وليرووا بدمائهم شجرة الحرية !!

واشتط أحد زعمائهم فى سبيل إثبات مؤامرة لم ينهض على المتهمين فيها دليل فقال : « هل للذين يأبون الحكم إلا بعد قيام الدليل أن يقولوا

لنا متى كانت المؤامرات تدون في المحاضر والأوراق . . ؟» فأصبحت قولته الفاسدة مبدأ استخدمه الخصوم في تصفية الجيرونديين . ولم يمض عامان حتى كان الجيرونديون يقفون أمام محاكم الثورة ، فإذا قال أحدهم : « أين الدليل على مؤامرتنا ؟ رد عليه رئيس المحكمة » ليس عندي دليل لأن المؤامرات لا تدون في المحاضر والأوراق .

وزعيمهم « بريسوه » هو القائل في تبرير الإرهاب « إن الوطن في خطر لا يحتمل ببطء الإجراءات ، فلتمض العدالة سريعة وكل خطأ تقع فيه مغفور » ولقد حفظها لهم خصومهم حتى إذا وقفوا موقف الاتهام وصاحوا مطالبين بالشهود ، قال لهم رئيس المحكمة الثورية وهو يتسم إن الخطر المحيق بالوطن لا يحتمل ببطء الإجراءات .

وهكذا قضى على هؤلاء التعساء أن يشحذوا السكين التي سوف تحز أعناقهم وأن يوقدوا النار التي سوف تلتهمهم ، فيذهبوا ضحية افتتانهم بالعبارات الخلافة الملهبة وانسياقهم وراء عواطف الدهماء ، وتخليهم عن مبادئ الحق والحرية التي درسوها في الكتب . ونسوها في الواقع .

ولم يكن (الجيرونديون) وحدهم ملوك الساحة عندما اندلعت نار الثورة وامتد شواظها إلى كل أنحاء فرنسا كان هناك (اليعاقة) أحط إفرازات الثورة عنفا ووحشية ، ولكنهم لم يجرؤوا على الإفصاح عن أنفسهم إلا بعد أن مهد لهم (الجيرونديون) طريق الإرهاب ، فقد ظلوا قابعين في ناديتهم كالوحوش الكاسرة تتلمظ وتتحين ساعة الانقضاض . . فجاء الجيرونديون بغبائهم ففتحوا لهم الباب لينقضوا على الثورة ويجعلوا منها مجزرة لم يشهد التاريخ مثيلا لها فظاعة وفجرا . . ورغم أن (اليعاقة) لم تكن لهم الشهرة الجماهيرية التي كانت للجيرونديين . . ولم يكن لهم من الأعضاء في البرلمان مايوازي نواب الجيرونديين . . إلا أنهم كانوا يتميزون بقوة التنظيم ، ودقة الحركة ، واختيار الوقت المناسب للانقضاض ، تراهم في أعلى المقاعد في نهاية الطرف اليساري من قاعة الجمعية التشريعية مثل النسور تعتلي قمة

الجل . . ومن هنا اكتسبوا اسم (حزب الجبل) . . ومن هنا اكتسب اليسار مفهوم التطرف في القاموس السياسى منذ ذلك الحين . . هنا يجلس زعمائهم متجاورين متماسكين . . دانتون وماراه وكميل ديمولان وسانجوست . . ثم زعيمهم الرهيب روبسيير الذى أصبح رمزا على الإرهاب فى كافة العصور والأزمان . . وكلهم من العناصر البشرية التى أشربت قلوبها حقدا على البشرية . . وعلى كل ما هو جميل ونبيل فى الحياة . . وعلى أيدي هذه الوحوش الفاتكة تحولت الثورة الفرنسية من جهاد فى سبيل الحرية إلى طغيان منظم ساد فيه الظلم ، وضاع فيه الحق ، وانتشر الذعر والهلع والرعب ، وذهب الأمن وانمحت معالم الحرية ، وارتفع لواء البطش وصارت الكلمة للطغاة والجبابرة والغلاة والمتاجرين بعواطف الشعب ، وسذاجة الدهماء ، واستحالت فرنسا على أيديهم جحيما وقوده الناس ، وزبانيته قادة الرأى الذين خانوا حرية الرأى ، وزعماء الإصلاح الذين تنكروا لمبادئ الإصلاح ، وسدنة الحرية الذين داسوا الحرية بالنعال .

● نهاية الملك :

إن الجريمة التى ارتكبها (الجيرونديون) فى تاريخ الثورة الفرنسية لاتقل بشاعة عن جريمة (اليعاقبة) . . لأن الذى يمهد الطريق إلى الإرهاب لا يقل إجراما عن فاعله .

ولقد كان (الجيرونديون) بمثابة المقدمة الأولى التى فتحت الباب على مصراعيه أمام قادة الإرهاب الدموى ، وكان مصير الثورة بأيديهم فى مراحلها الأولى ، وكان بإمكانهم أن يحافظوا على مسارها المعتدل لو أنهم تمسكوا بمبادئهم الأصلية ولو لم ينساقوا وراء عواطف هذه المرأة الغربية التى وضعتها المقادير فى طريقهم فأسلموها زمامهم . . فأسلمتهم إلى المقصلة . . وكانت محاكمة الملك لويس السادس عشر اختبارا لحنكة

الجيروند وكانوا فى قرارة أنفسهم يميلون إلى النظام الملكى ويرونه أفضل من الجمهورية . . وفضلا عن ذلك كانوا يؤثرون الحفاظ على نقاء الثورة فلا تتلوث بدماء الملك . . وكان أشد الثوريين تطرفا لا يفكرون فى أكثر من إيجاد حكومة ملكية دستورية عادلة . . ولكن مادام رولان كانت أكثر تطرفا من كل الرجال . . ! وترى أن مجد فرنسا لن يتحقق إلا بإعدام الملك . . ولا تتحرج أن تعيب على زملائها « إنكم تشتغلون بالصغائر وتدعون الرأسين الكبارين (الملك والملكة) يفلتان من أيديكم ليدبرا شقاء الوطن ومحنة البلاد . . ألا حسبكم ما فرطتم حتى اليوم . . وهاهى ذى العظام تناديكم فاعملوا على محاكمة الطاغيتين الملك والملكة) . وإلا فأنتم صبيان كبار . . » .

هكذا استطاعت مدام رولان أن تكون القوة المحرصة على قتل الملك دون حساب لما سوف يجره هذا العمل على فرنسا من انتقام الدول الأوربية الملكية التى كانت ترى فى قتل لويس السادس عشر عدوانا على الأنظمة المالكة . . فهل كانت مدام رولان على قدر كاف من الذكاء عندما استفزت رجولة زملائها (الجيروند) ودفعتهم إلى التصويت - رغما عنهم - إلى جانب إعدام الملك . . ؟ وهل كان لويس السادس عشر يستحق هذه النهاية التى حفرتها له مدام رولان . . والتى كان لها أثرها الكبير فى تحويل مجرى الثورة من السلم إلى الحرب . . ومن الاعتدال إلى التطرف والإرهاب .

إن مؤرخى الثورة الفرنسية يجمعون على أن لويس السادس عشر لم يكن أسوأ ملوك البوربون ، بل كان ضحية المفاسد التى ارتكبها آباؤه وأجداده وإنه شخصا كان يتحلى بصفات خلقية حميدة أهمها التدين والطيبة . . فيقول المؤرخ (مينيه) فى كتابه عن الثورة الفرنسية تعليقا على إعدام الملك :

« وهكذا هلك فى سن التاسعة والثلاثين ملك من أفضل الملوك ،

وإن كان في الوقت نفسه ، من أضعفهم ، وذلك بعد حكم استمر ست عشرة سنة ونصفاً ، قضيت في فعل الخير ، لقد أورثه آباؤه وأجداده الثورة ، أما هو فكان أكثر من أى واحد منهم صلاحية وقدرة على أن يمنع اندلاعها أو أن يعمل لإنهائها إذا اشتعلت ، حيث كان بوسعه قبل نشوب الثورة أن يكون ملكاً مصلحاً ، أو أن يصبح بعد قيامها ملكاً دستورياً ، وهو يكاد أن يكون الملك الوحيد الذى لا أطماع له ولا شغف أو ولوع بالسلطة ، والذى يجمع في شخصه بين السجيتين اللتين تصنعان الملوك الصالحين : الخوف من الله . . وحب الشعب .

لقد ظلت رقبة الملك - أثناء محاكمته - معلقة على كلمة « الجيروندي » بحكم أغلبية أصواتهم . . وكانت كلمة « الجيروندي » معلقة بإرادة مدام رولان . . ولكن حظ الملك كان سيئاً إذ كان يحظى بكمية هائلة من بغض مدام رولان ، فقد حياته بسبب كيدها وتدبيرها وحشدها أغلبية الأعضاء للتصويت في جانب إعدام الملك . . وظنت المرأة الحديدية أن الأمر قد استتب لحزبها بعد سقوط الملكية ، وأن أمر فرنسا سيؤول إليها ، وباتت تمنى نفسها بحكم البلاد مستنرة وراء أصدقائها « الجيروندي » . . ولكن اليعاقبة الذين تصاعد نجمهم بعد إعدام لويس كانوا لها بالمرصاد . . وقر عزمهم على الخلاص منها ، وتولى دانتون - زعيم اليعاقبة - تدبير خطة الانتقام ، وبدأت الخطة بتدبير حملة صحفية لتشويه سمعة الزعيمة المتسلطة وزوجها المخدوع ، واهتمته بالعجز عن إرضاء مطالبها الزوجية ، فأرعى لها العنان لتبحث عن المتعة من أى سبيل . . وانطلقت الصحف تنال من عفاف مدام رولان وسمعتها وشرفها وهى لا تملك القدرة على رد هذه السهام المحمومة . . وفى تلك الأثناء (سبتمبر ١٧٩٢) وقعت في باريس مذبحة بشعة حيث انطلق الدهماء يهاجمون قصور النبلاء والكنائس والسجون الخاصة بالمعتقلين ، وانهالوا عليهم ذبحاً وتقتيلاً . . ثم هاموا في الشوارع يدمرون المتاجر وينهبونها ويقتلون كل من يصادفهم من المارة . . وكانت مذبحة راح ضحيتها الآلاف ،

فهاجت الخواطر. . وانتهزتها مدام رولان فرصة لتصب حقدتها على خصمها العتيد دانتون وتتهمه بتدبير هذه المذبحة البشعة . . وكأنها أفاقت المرأة الدموية من غفوة التطرف التى طالما حركتها . . فأخذت تستنكر الإرهاب ، وتقول إن الثورة التى أحبتها وتفاخرت بالمشاركة فيها قد أصبحت سبة لفرنسا وعارا للقائمين بها . . وتتهم اليعاقبة بأنهم أفسدوا الثورة وحولوها عن أغراضها السامية وجعلوها أداة فتنة ملطخة بالأقذار .

● فى الطريق إلى المقصلة :

وكان لابد أن ينتهى هذا الصراع العلنى بانتصار اليعاقبة على خصومهم الجيرونديين وزعيمتهم الفولاذية . . فقد كانت الثورة قد مضت فى طريق الإرهاب إلى ما لا نهاية . . وأصبح لهم فى الجمعية الوطنية أغلبية تسمح لهم بإرسال خصومهم إلى المقصلة . . وحن الوقت الذى رأى فيه قادة الإرهاب أنه لاتراجع عن القضاء على مدام رولان وزمرتها . . وبدأ تنفيذ الخطة بأن وقف (دانتون) فى المجلس العرفى الحاكم يتهم الجيرونديين صراحة بالخيانة العظمى ، ويزعم أنهم ما صوتوا على إعدام الملك إلا تحت تأثير الخوف من رأى العام ، وإنهم حاولوا إنقاذ حياته بعد الحكم عليه بالتصويت لوقف التنفيذ ، وأعقبه (ماراه) فرماهم بتهمة التآمر على أمن الوطن وسلامة الجمهورية وإثارة الأقاليم ضد العاصمة بغية إشعال نار الحرب الأهلية وإحباط الثورة ، وتلاه (روبسبير) فطالب بوجوب تطهير البلاد من الخونة الذين يتظاهرون أمامها بالحب والوطنية وهم يضمرون السوء والبغضاء وطالب بإحالتهم جميعا إلى محكمة الثورة ليلقوا جزاء ما اقترفوا فى حق الوطن من آثام ، وما هى إلا أيام حتى كانت ثلة من الجند تقتحم قاعة البرلمان وتلقى القبض على ٢٤ من النواب «الجيرونديين» الذين كانوا يتمتعون بالحصانة البرلمانية (!!) حيث سيقوا إلى المقصلة . .

وكان لابد أن تنتهى أسطورة مدام رولان كما انتهت كل الأساطير التى أفرزتها الثورة ، وسقطت مدام رولان مع الحزب الذى ارتفع بها إلى ذروة الجاه والنفوذ . . ثم هوى معها إلى حضيض الذل والهوان لقد كانت نهاية مؤلمة وصمت تاريخ الثورة الفرنسية بالخزى والعار . . وإليك مشهد النهاية كما سجله بقلمه المبدع أدينا المصرى الكبير المرحوم حسن بك الشريف فى كتابه : مناظر ومشاهد من الثورة الفرنسية الكبرى :

● نهاية المهزلة :

أحست مدام رولان منذ قبض على أصدقائها السياسيين أن حياتها باتت فى خطر وأن أعداءها يتعقبونها بحقدهم وبغضائهم ، وازدادت يقينا بهذا الخطر عندما صدر قرار المجلس الوطنى بالقبض على زوجها تمهيدا لمحاكمته هو الآخر على جرائم من النوع الذى أطاح برؤوس إخوانه . ولقد كان فى استطاعتها أن تحذو حذو زوجها فتفر وتنجو بنفسها ، ولكن يظهر أن النكبة التى أصابت أصحابها وأحباءها ، والفشل الذريع الذى منيت به سياستها وآمالها ، والمصير المحفوف بالأهوال الذى كان ينتظر البقية المشردة من أولئك السبان الأعجاء ، يظهر أن كل ذلك زهدا فى الحياة ورغبا عنها ، وجعلها تلبث حيث هى ، حتى تتم آية الله فيها فتذهب غير آسفة على شىء .

وكان ما توقعت ، وأمرت السلطات بالقبض عليها وتقديمها إلى المحكمة الثورية بتهمة الاشتراك مع زوجها وغيره من الذين ثبتت خيانتهم ، فى التعريض برجال الجمهورية وتسويئ سمعة الثورة وما إلى ذلك من التهم المبهمة الغامضة التى لاتفيد شيئا معينا ، ولكنها على كل حال كفيلة بإرسال صاحبها إلى المقصلة .

ولقد حاولت أن تدافع عن نفسها أو تدفع الإهانات التى وجهت إلى عفافها وعرضها ، ولكن القضاة قطعوا عليها سبيل الكلام وحكموا عليها

بالإعدام ، فقابلت الحكم الرهيب بجنان ثابت وصاحت في وجوههم :
«أما وقد رأيتموني جديرة بأن أشاطر أولئك الرجال العظام الذين
قتلتموهم مجد منيتهم وعظمة نهايتهم ، وأن أسير معهم في الطريق الذى
شقوه لأنفسهم إلى الخلود ، فإننى سألقى الموت شجاعة كما لقوه» .

وكانت قد انتهزت أوقات فراغها فى السجن لكتابة مذكراتها فجاءت
هذه المذكرات تحفة تاريخية جديرة بالتأمل والتفكير، فياضة بالعبر
والعظات ، فلما صدر الحكم عليها ، وعادت إلى السجن تناولت القلم
ونخطت السطر الأخير منها فقالت : « أيتها الطبيعة افتحى لى صدرك
واحتوينى ، ويأياها الإله الرحيم تقبلنى فى جوارك» .

وفى اليوم التالى ساروا بها إلى ساحة الإعدام فسارت إليها هادئة باسمه
تحىى الجماهير من فوق مركبها وتومىء إلى الذين تعرفهم إيماءة الوداع فلما
بلغت تمثال الحرية المنصوب فى ميدان الثورة رفعت صوتها عاليا وصاحت
صيححتها الشهيرة التى أثرت عنها : « أيتها الحرية ، ما أكثر ما يرتكب
باسمك من الآثام» .

وكان زوجها رولان قد اختفى فى مدينة روان ولبث مختبئا أشهراً
طويلة . فلما علم بموت امرأته غادر مخبأه وهام على وجهه فى الفلاة .
ويظهر أن خيبة أماله والكوارث التى أثقلت كاهله زهدته هو الآخر فى
الحياة ، ففى صباح اليوم التالى لإعدام مانون وجده بعض الفلاحين ملقى
على وجهه فى حقل ، فلما حركوه ألفوه جثة هامدة ووجدوا فى يده المقفلة
ورقة كتب عليها : « لم أطق صبرا على حياة فى أمة لم يبق فيها أثر من
المبادئ السامية التى عشت حتى اليوم من أجلها . فأموت راجيا لبلادى
أن تزيح عن صدرها ذلك الكابوس الذى يخنقها وأن تثور يوما على المظالم
التي ترتكب فيها لتحيا حياة حرة سعيدة» .

وفى تلك الأثناء كانت شرذمة من الرجال يهيمون على وجوههم فى
شمال فرنسا مهلهلى الثياب قذرى الأبدان مرسلى اللحى ، قد فارقت

وجوهم نضرة الشباب وعلت سيماهم وعشاء التجوال وأنهكت قواهم أهوال المطاردة ومشاق التخفى والفرار، أولئك هم بقية نواب الحزب الجيروندي الذين انسحبوا من قاعة المجلس الوطنى قبل صدور القرار بالقبض عليهم . ولقد لجئوا إلى مدينة بوردو للغرض عينه، فكان الفشل نصيبهم أيضا . فلما حاولوا الارتحال عنها وقع اثنان منهم فى قبضة الشرطة التى كانت تطاردهم فأرسلا إلى المقصلة ولحقا بزملائهما السابقين .

ولقد نجح الباقون فى الفرار وظلوا يختبئون فى الآبار ويبيتون فى الغابات ويسكنون الأقبية والسراديب، إلى أن كانت ليلة ظنوا فيها أن العسس داهمهم، فأرادوا أن يقضوا على أرواحهم بأيديهم وأخرج كل منهم غدارة وأطلقها على نفسه فمات منهم من مات، ومن ظلوا جرحى يعانون سكرات الموت أبت السلطات الثورية أن تدعهم يموتون ميتة غير رسمية فأرسلتهم إلى النطع ليقضوا كما ينبغى أن يقضى كل من قاوم الظلم ورفع رأسه فى وجه الطغاة! » .

الإرهاب الثوري

كانت الثورة الفرنسية زلزالا أدى إلى هدم النظام القديم في فرنسا وكل أوروبا ، وكانت الثورة بأحداثها الجسام أشبه بلحظة فاصلة من لحظات التاريخ ، فقد ختمت على العصور الوسطى التي طالت وشغلت من تاريخ أوروبا مايزيد على ألف سنة ، وهدمت الثورة معالم الإقطاع والحكم المطلق والامتيازات الطبقية ، وفتحت أمام العصر الحديث باب الديمقراطية السياسية والحرية الاقتصادية والاستنارة العقلية وعملت على ظهور الدول القومية التي شكلت خريطة أوروبا الجديدة .

وكانت الثورة الفرنسية في بعض مراحلها حركة بناء وتغيير، كما كانت في بعض مراحلها حركة دمار وتخريب ، ولكن من المسلم به بين مؤرخي الثورة أنها حين قامت لم يكن أحد في فرنسا يفكر في هدم النظام القائم واقتلاعه من جذوره ، بل لم يكن أحد يفكر وقت اندلاعها في إلغاء الملكية وتأسيس الجمهورية ، أو يفكر في هدم الدين أو فصل الكنيسة عن الدولة أو إقامة المحاكم الاستثنائية التي أساءت إلى العدالة ، أو بناء المقصلة التي أطاحت برؤوس الألوف من أعداء الثورة وأبنائها على السواء .

على العكس من ذلك كان كل ما فهمه قادة هذه الحركة وصفوة رجالها وقتئذ أن الثورة حركة منظمة ، يتحكم العقل في حوادثها بصورة تجعل من الممكن تداعى الحوادث في ترتيب طبيعي سلمى دون عنف أو غلو، ولكن الأحداث صارت تخضع تدريجيا لتأثير الظروف والأشخاص

الذين ركبوا الثورة وتضافروا على صبغها بتلك الصبغة الدموية التى لطخت تاريخها ، وجعلتها أشبه بسفينة انكسر شراعها فأصبحت ألعوبة للعواصف والأنواء تعصف بها كيف شاءت ، أو قل أصبحت جسدا بلا عقل . . فانطلقت الغرائز من كمائنها تتصارع وتتقاتل ، وصارت الساحة الفرنسية مثل ساحة السيارات الكهربائية فى دور الملاهى . . تتلاطم وتتخبط . . والناس فى حيرة من أمرهم بين مذعور خائف . . وعابث ساخر . .

ومن المفارقات الغريبة أن الثورة فى مرحلة الإرهاب جعلت من (العقل) بديلا عن (الدين) ولكنها اتخذت من الإجراءات الشاذة ، ما يتنافى مع أبسط قواعد العقل والمنطق ، حتى قال أحد المؤرخين الظرفاء «إن حكومة الإرهاب اختارت لفرنسا دين العقل بعد أن أبعدت العقل عن جميع أعمالها وتصرفاتها . . » .

وإلا . . فما ظنك بقانون المشبوهين الذى يسمح للسلطة الثورية بأن تأخذ الناس بالشبهة ، وتحاكمهم على نياتهم لا على أعمالهم - تماما كما كانت محاكم التفتيش تفعل قبل ألف عام - فيرسل المتهمون إلى ساحة الإعدام لا للذنب اقترفوه فى حق الثورة ، بل لمجرد أنهم كانوا - فى رأى المرشدين والمخبرين - غير متشدين بمبادئ الثورة ، ولا يبدو منهم ماينم عن ولائهم لزعمائها الذين تحولوا إلى آلهة . .

وما ظنك بمحكمة الثورة التى تحولت إلى سيرك هزلى ، نجومه رجال جلسوا على منصة القضاء ولبسوا مسوح العدل ولكنهم كانوا فى الحقيقة سفاحين لا تساوى حياة الإنسان لديهم أكثر من حياة الذباب والبعوض . .

كانت هذه المحكمة عند بداية تشكيلها لايسمح لها بالنظر فى جرائم الخيانة أو التآمر إلا بناء على قرار اتهام تتحدد فيه التهمة وقرائنها وأدلة ثبوتها . . ولكنها فى مرحلة الإرهاب الثورى تحولت إلى مطبخ أو طابونة

لإعداد (الخبزة) وهو الاسم الذى كان يطلق على القطيع الذى تعده المحكمة فى الليل لدفعه إلى المقصلة فى الصباح . وتخلصت هذه المحكمة من أبسط الإجراءات القضائية ، حتى مجرد الشكل لم يعد له وجود أو احترام ، وأصبح فى استطاعة المدعى العام فوكيه تونفيل - أن يأمر بالقبض على أى شخص بمجرد تلقيه إشارة من السلطات الثورية ، بل بمجرد تلقيه بلاغا من أحد المواطنين ضد أى مواطن آخر . !! فيجد المسكين نفسه فجأة أمام محكمة صورية ولايسمح له بالدفاع عن نفسه أو بتوكيل محام للدفاع عنه . . أو باستدعاء شهود لنفى الاتهام الذى وقع عليه ، وكانت هذه المحكمة التى ترفع شعار العدالة زورا وكذبا لاتعطى لنفسها الوقت الكافى حتى لقراءة الأوراق . . أو التحقق من شخصية المقبوض عليهم ، فتأمر المحكمة بإرسال الجميع إلى المقصلة حتى لايفلت المجرم من (العدالة) . . ولتستريح المحكمة من مستقة التأكد من شخصية المطلوب ، وتبيان الحق من الباطل . .

وإذا تعطفت المحكمة وسمحت لأحد المحامين بالدفاع عن متهم ، ففى أضيق الحدود وبأقل الكلمات ، وذات مرة ترافع أحد المحامين بحرارة عن متهم ، فما كان من عدالة المحكمة إلا أن أرسلت المحامى إلى المقصلة ، وكانت حجتها فى ذلك أن الدفاع بحرارة عن متهم لاينبغى أن يصدر عن وطنى مخلص للثورة !!

وبلغ من استهانة هذه المحكمة الثورية بمبادئ العدالة أنها اعتبرت إصرار المتهم على الدفاع عن نفسه هو أكبر دليل على إدانته وإجرامه (!!) ولو أنه (أى المتهم) كان بريئا كما يزعم لفوض أمره إلى «عدالة» المحكمة . . وجعلت السلطة الثورية من هذا المبدأ الخطير قانونا تشهره المحكمة فى حق المتهم المسكين إذا لمست منه إصرارا على تنفيذ التهم الموجهة إليه . . ومضت حكومة الإرهاب فى تشريع الإرهاب ، وإعداد القوانين التى تسمح للمحكمة الثورية بإرسال أكبر

عدد من الناس إلى المقصلة بلا محاكمة . . أو عن طريق محاكمة
صورية . . وكان أحد هذه التشريعات قانون « استنارة المحكمة »
وبمقتضاه يحق للمحكمة الاستغناء عن سماع شهود النفي وإقفال باب
المرافعات قبل نهايتها بحجة أن المحكمة قد « استنارت » ولم تعد في حاجة
إلى مزيد من المعلومات . . وكانت المحكمة تعلن « استنارتها » في كل
قضية تلمس فيها رجحان كفة البراءة على كفة الاتهام . . وكأنها تضمن أن
يفلت برىء من سكين المقصلة . .

ويحوى تاريخ الثورة الكثير من المخازى التى ارتكبها رجال كانوا -
للأسف - فى ماضيهم من رجال القضاء . . ولكنهم باعوا ضمائرهم
للسلطة الجديدة، وسخروا علمهم وسمعتهم فى خدمة الإرهاب تحت
ستار زائف من العدل والقانون .

● مهازل القضاء الثورى :

حدث أن قبضت السلطات على سيدة اسمها فوكير بتهمة الاعتداء
على بعض عساكر البلدية، فسيقت إلى محكمة الثورة بعد أن أغلقوا بيتها
ووضعوا عليه الأختام ، ووقفت المرأة أمام المحكمة فقالت إن الواقعة
مختلقة من أساسها، لأنها كانت غائبة عن باريس فى اليوم الذى يدعى
النائب العام - فوكيه - أن الواقعة حدثت فيه ، وقالت إن فى بيتها ورقة
ثبتت صدقها، وطلبت من المحكمة أن توفد أحد موظفيها ليفض الأختام
ويأتى بهذه الورقة التى تكفى وحدها لإثبات براءتها، ووافقت المحكمة
وأوفدت أحد محضرى المحكمة لأداء هذه المهمة، وذهب الرجل وعثر
على الورقة ، فلما عاد وجد المحكمة قد أصدرت الحكم بإعدام السيدة ،
ولم تترى حتى تستحضر المتهمه دليل براءتها، أو إنهم نسوا أنهم كلفوا
أحد الموظفين بإحضار الورقة . . وفقدت المرأة حياتها بسبب العجلة . .
أو بسبب النسيان .

ووقف رجل اسمه « كارث » متها مع طائفة من الناس لم يرههم من قبل ، فلم توجه المحكمة إليه سوى سؤال واحد هو: ألم تكن وكيل الأميرة (مارسان) في إدارة أعمالها؟ وهل لم تعاون أولاد هذه الأميرة على الهجرة من فرنسا؟ فأجاب نعم كنت في خدمة سيدة تدعى مدام مارسان - وليست مارسان - ولم تكن هذه السيدة من الأميرات ، ولم يكن لها أولاد حتى يقال إنى عاونتهم على الهجرة . . وكان القضاة في شغل عن إجابة المتهم فحكموا عليه بالإعدام . . ونفذ الحكم في نفس اليوم . .

وذات مرة قدموا إلى محكمة الثورة سيدة ضمن زمرة من المواطنين بتهمة التآمر على سلامة الجمهورية ، ووقف النائب العام - فوكيه تانفيل - يطلب من المحكمة تطبيق حكم الإعدام عليهم أجمعين ، وهنا نهض المحامى الموكل بالدفاع عن المرأة ، وظن أنه سيلقى على المحكمة مفاجأة لم يتبينها المحققون وهى أن موكلته خرساء . . صماء . . بكماء . . فكيف تتآمر؟؟ وكان المفروض أن يعتذر النائب العام ويطلب إسقاط الاتهام عن المرأة . . ولكنه لجج في عتوه وغروره . . وتبجح به ، وقال للمحكمة : إن الناس يتآمرون برؤوسهم لا بألسنتهم . . ونحن نطلب رأس المتهم لا لسانها . . ! واستجابت المحكمة لطلب المدعى العام . . وأرسلت المرأة إلى المقصلة . .

وأمرت السلطات الثورية بإلقاء القبض على سيدة وزوجها وأماها بتهمة التفوه بألفاظ اعتبرت ماسة بكرامة أباطرة الثورة ، ولكن السلطات أخطأت في التنفيذ ، وبدلاً من أن تقبض على الزوج البالغ من العمر ٥٢ عاماً قبضت على شقيق الزوجة ، وكان صبياً لا يتجاوز عمره ١٧ سنة ، ولم يقرأ النائب العام أوراق القضية ، بل لم ينظروا إلى وجوه المتهمين ليتبينوا أن الصبى المائل أمامهم لا يمكن أن يكون هو الزوج المتهم ، ولا أن يكون زوج هذه المرأة التى تقترب من الخمسين ، وقد حكمت المحكمة عليهم جميعاً بالإعدام .

● طريق الإرهاب :

لعل هذه النماذج من فظائع القضاء الثورى تكفى للتدليل على الدرك الذى انحدرت إليه الثورة فى عهد الإرهاب ، وهو العهد الذى أصبحت فيه المقصلة هى العقل المحرك لجهاز الثورة ، بعد أن فقد قادة الثورة عقولهم ، وبدأ عجزهم فى إدارة شئون الدولة ، أو سد حاجة الأفواه الجائعة التى كانت لا تكف عن الصياح فى طلب الخبز. كانت الجماهير الجائعة التى ذقت الظلم والفقر والهوان فى العهد البائد تتطلع إلى اليوم الذى تجنى فيه ثمار صبرها وتأييدها للعهد الجديد . ولكن الأحكام الجدد لم تكن لديهم الخبرة الكافية فى إدارة شئون الدولة وظنوا أن القوة التى هدموا بها النظام القديم قادرة على بناء النظام الجديد . . . ولا مفر من استخدام العنف مع العامة بنفس القدر الذى استخدم مع النبلاء ورجال الدين ، خاصة بعد أن أصيبت الجماهير بالإحباط والفجيرة فى العهد الجديد ، وانتشرت الثورات المضادة فى الأقاليم ، كما أخذت الدول الأوروبية تتحالف وتستعد لغزو فرنسا انتقاما لمقتل الملك لويس السادس عشر وإعادة حكم البوربون وصد موجة الثورة التى هددتهم فى عقر دارهم .

وفى هذا المناخ المشحون بالتوتر فى الداخل والخارج تمكن المتطرفون (اليعاقبة) من الإطاحة بالمعتدلين (الجيرونديين) وساقوهم كالنعاج إلى المقصلة وظن اليعاقبة أن الجوق قد خلا لهم فبدءوا بتعطيل الدستور وأقاموا سلطة دكتاتورية ممثلة فى لجنة (الخلاص العام) وقد ضمت رؤوس الإرهاب « دانتون وهيبير وشوميت وروبسبير » . . . ومن ورائها « كومون باريس » الذى أصبح أكبر قوة قادرة على تحريك الغوغاء لحساب الإرهاب . وبدأت مرحلة التخبط فى تاريخ الثورة الفرنسية وإطلاق قوى الشر من عقالها بحجة الحفاظ على سلامة الثورة . .

وأرادت حكومة الإرهاب أن تعوض فشلها الإدارى والاقتصادى

بتحويل أنظار الناس عن قضاياهم المعيشية وإشغالهم بالجبهة الخارجية وأخذوا في تجهيز الجيوش وإرسالها إلى الجبهة ثم اتجهوا إلى عقائد الناس فأصدروا قرارا بإلغاء جميع الأديان وحل كل الهيئات الدينية وإغلاق الأديرة والكنائس والمعابد وإعدام القسس والرهبان . .

وبدا كأن الثورة تتخلص من كل روابط الدين والأخلاق والنظام والقانون . . وترغم الناس على قبول أوضاع جديدة لم تكن تخطر على بالهم عندما أيدوا الثورة، وبدأ المملل يتسرب إلى نفوس الجماهير بعد أن فجعت في آمالها، بل إن المملل من مشاهد الدماء بدأ يتسرب إلى بعض قادة الإرهاب أنفسهم مثل « دانتون » وصديقه الصحفي الشهير « كميل ديمولان » . . وانقسم قادة الإرهاب على أنفسهم وتسربت الشكوك إلى صفوفهم وكل منهم يضممر الانقضاض على زميله . . والشاطر هو الذي يسرع قبل الآخر . . وبدأت الثورة تأكل أبناءها بعد أن فرغت من التهام خصومها . . وامتدت النار لتحرق مضمريها . . وأمسك الطاغية « روبسبير » بيده عصا المحرقة ليقلب نيرانها حسب هواه، ويدفع بإخوانه إلى الجحيم واحدا إثر الآخر، دون أن يملك أحدهم القدرة على الإفلات . . وكأن هؤلاء الوحوش قد تحولوا إلى فئران محبوسة في مصيدة تحاصرهم النيران من كل مكان . .

في البداية تعاون « روبسبير » مع صديقه « دانتون » للخلاص من زميليهما « هيبير وشوميت » عضوى لجنة الإنقاذ العام اللذين كانا وراء إعلان عبادة العقل، وانساق « دانتون » وراء « روبسبير » ونفذ له رغبته دون أن يدرك أن الدور سيأتى عليه، وسيق هيبير وشوميت إلى المقصلة . . وبدأ كأن الجو خلا للصديقين . ولكن الوقت كان يسمح للشكوك بأن تعمل عملها حتى بين أشد الأصدقاء وفاء، وعلى من يطمح في البقاء أن يسارع بالقضاء على زميله . . ولكن مشكلة « دانتون » أن نفسه امتلأت قرفا من كثرة الدماء التى سالت تحت سكين المقصلة، ولم يعد يطيق

صبرا على استفحال الإرهاب ، وشاركه صديقه « ديمولان » هذا الشعور.
وشرع الاثنان يدعوان إلى التسامح والاعتدال والرحمة ، وأخذ ديمولان -
لسان الثورة اللاذع - يندد بالظلم والظالمين ويحذر من الغلو في سياسة
البطش والتنكيل ، ويشهر بأحكام المحكمة الثورية .

وكانت أى نغمة عن الاعتدال فى نظر روبسبير جريمة عقوبتها
القتل . . فاستصدر الطاغية من الحكومة الثورية قرار اتهام ضد
الصديقين اللذين أصيبا بداء الاعتدال : ديمولان ودانتون . . فقبض
عليهما فى اليوم الأخير من مارس ١٧٩٤ . . وأصيب الصديقان بالذهول
وهما يقفان أمام المحكمة الثورية شأنهما شأن عشرات الألوف الذين ذهبوا
ضحية طغيان شاركا فى وضع أسسه بأيديهما . . فجاء اليوم الذى يحترقان
به . وقدما إلى المحاكمة ضمن ١٥ متهما بجريمة التآمر ضد
الجمهورية .

● فى أحضان المجد :

ووقف « دانتون » أمام المحكمة يفند الحجج الواهية التى لفقها له
النائب العام « فوكيه » ، ولكن متى كانت المحكمة تصغى إلى دفاع
المتهم . . واتخذت المحكمة من إصرار دانتون على الدفاع عن نفسه دليلا
على إدانته . . فاعترض دانتون كالبعير الهائج وصاح : إنكم لم تسمعوا
شاهدا من شهود النفى ، ولم تواجهونا بشاهد من شهود الإثبات ، ولم
تطلعونا على محاضر التحقيق حتى نعرف منها ما شهدوا به علينا أو لنا ،
فأى نوع من أنواع العدالة هذا الذى تطبقونه الآن ؟ !

وكان ديمولان قد أعد دفاعا مكتوبا فى أوراق كثيرة ، فمزق هذه
الأوراق وكورها فى يده وقذف بها رأس النائب العام فوكيه وصاح « كفى
مجنونا أيها المجرمون » وجذب دانتون بعض أصحابه المتهمين من
أيديهم وهم بالخروج ، فسأله الرئيس : إلى أين يادانتون ؟ فقال : إلى
المقصلة يا وغد !

وأحببت كثيرا . . فلم يبق إلا أن نهجع الهجعة الأخيرة . . لنستريح»
وكتب ديمولان رسالته الأخيرة إلى زوجته وقال فيها : كنت أحسب أن
اسمى يظل رمزا من رموز الثورة وعنوانا من عناوينها ، ولكن الطغاة يأبون
إلا أن يجردوني من هذا الشرف ، ، ويمزقوا صحبفتى من كتاب الثورة
ويجعلوا منى عدوا لها . . كنت أحلم بجمهورية عادلة كريمة يحبها كل
الناس ويتفيثون ظلالها الرطبة الوارفة ، ولكنى إذ كنت أدعو إلى هذه
الجمهورية لم أكن أعرف أن الناس قساة وغلاظ إلى هذا الحد . . » .

وفي صباح اليوم التالى اصطفت العربات أمام باب السجن لنقل
المحكوم عليهم إلى ساحة الإعدام ، فلما احتوتهم سارت بهم بين صفوف
الجند والجماهير المحتشدة على طول الطريق ، وكان دانتون هادئا يمتزج
بهذوئه نوع غريب من المرح . فكان يمازح أصحابه ويسخر من حزن
صديقه فيليو ويحاول أن يسرى هموم صديقه الآخر ديمولان ويسكته كلما
حاول أن يخاطب الجماهير ويقول له : « هون عليك ولا تعباً بهذه
الغوغاء » .

ولما مر الموكب الرهيب أمام بيت الطاغية روبسبير نهض دانتون من
مقعده وصاح صيحة هائلة دوت فى الفضاء وقال : « أيها الطاغية اللعين
لا تفرح فسوف تلحق بنا بعد حين » .

وقد صدقت نبوءته . .

ثم وقفت العربة عند المقصلة ونزل المتهمون وحاول أحدهم أن يعانق
دانتون ولكن الحراس حالوا بينها فصاح دانتون : « وهل تحولون دون أن
تتعانق رؤوسنا فى السلة بعد الممات ؟ » وكان كلما صعد أحد رفاقه إلى
النطع يودعه قائلاً : « إلى اللقاء القريب أيها الصديق العزيز » فإذا جاء
دوره وتأهب للصعود تولاه شىء من الوهن والخور وقال : « آه يازوجتى
المحبوبة . . لن أراك بعد اليوم ! » . ثم وجه الخطاب إلى الجلاد وقال :
« أدر رأسى على الناس ليروه فليس لديهم من مثله كثير . »

● عظات وعبر :

تلك كانت خاتمة دانتون . . وإنها لخاتمة ملأى بالعظات والعبر .
ولسوف اختتم هذا المشهد الدامى من مشاهد الثورة الفرنسية بهذه العبارة
الرائعة للمؤرخ الأديب المرحوم حسن بك الشريف :

« لعمري إذا كان من بين أولئك الوحوش الذين قاموا بالثورة الفرنسية
وملكوا فيها رجال هم أقرب إلى القلوب من غيرهم ، ففي طليعة هؤلاء
الرجال دانتون ، ولئن أخذ التاريخ على هذا الرجل أنه كان أول الدعاة
إلى حكم الإرهاب وإراقة الدماء ، وإلى تثبيت قوائم الجمهورية فوق
جبال من الجثث والأشلاء ، فقد وجب أن يعرف له المؤرخون أنه كان
أيضا أول من هالته فظائع الإرهاب ، وأول من راجع نفسه وعرف خطأه ،
فأرسل الصبيحة داوية - ولو بعد فوات الأوان - تدعو إخوانه إلى الرحمة
وأخذ الناس بالرفق وفي حدود القانون . . ولئن تقدم دانتون إلى التاريخ
كما يتقدم زملاؤه ، ويداه تقطران من دم عشرات الألوف من الأبرياء
الذين راحوا ضحية تطرفه وغلوئه ، فإنه يتقدم أيضا حاملا رأسه
المقطوعة مكفرا به عما جنت يده ، وحاملا حسن القصد ، وصدق التوبة
شفيعين له فيما اجترح من الأوزار » .

ثم يقول حسن بك الشريف :

وهكذا قدر على الذين أضرموا النار أن يكونوا لها خطبا ، وعلى الذين
قطعوا الجسر أن يجرفهم الطوفان ، ولقد ظل الطوفان يعلو ويندفع ويأخذ
في طريقه كل من يصادفه حتى لابتلع الرجعيين والمعتدلين ، ثم يعود
فابتلع المتطرفين واليعاقبة وعلى رأسهم روبسبير وفوكيه تانفيل . .
وسانجوست وكوتون . . ثم يعود فابتلع قضاة المحكمة الثورية ومحكميها
وجلاديها ومعهم الدكتور جيوتان مخترع المقصلة التي سميت باسمه
« الجيوتين » .

ولعل أعجب ما يدعو إلى التأمل والاعتبار في تلك الثورة الفرنسية الكبرى أنها بدأت بفظائعها ومنكراتها لتخلص فرنسا من حكم الفرد الذي كان اسمه الملك لويس السادس عشر، وانتهت بعد كل هذه الفظائع والمنكرات إلى خضوع فرنسا لحكم الفرد الذي صار اسمه القنصل بوناپرت ثم الإمبراطور « نابليون » .

الدكتا تورية البيضاء

لماذا نهتم بدراسة سير العظماء والنبلاء والمصلحين، ونهمل دراسة حياة الطغاة والمتجبرين والمفسدين في الأرض!! لقد أفاض القرآن الكريم في ذكر قصص الأنبياء والرسل ودعاة الحق والخير والفضيلة.. لقمان الحكيم وامرأة فرعون التي قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة، والرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليقول يا قوم اتبعوا المرسلين، وفتية الكهف الذين اعتزلوا الشرك فزادهم الله هدى ونشر لهم ربهم من رحمته عوضا عن الزمن الذي ولى من أعمارهم وهم رقود، ولكن.. إلى جانب هؤلاء الأخيار الاتقياء لم يهمل القرآن ذكر إبليس وفرعون وهامان وأبى لهب وامراته حمالة الخطب وامرأة نوح وامرأة لوط والنمرود الذي تجرأ على الله فقال : أنا أحيى وأميت..

ونحن نحب العظمة والنبيل والشرف والفضيلة.. ونضعها مكانا عاليا نصبو إليه ونسعد به، ونحترم كل من يتحلى بهذه القيم السامية ونجعل منه قدوة نتأسى بها.. ولكننا نتجنب الشر والفساد والجبروت.. وننفر من سيرة الأشرار والطغاة.. ربما خوفا من أن تتحول سيرهم إلى نماذج بطولية.. وهذا خطأ في التفكير.. لأن دراسة الشر تشجع على النفور منه.. تماما كما تلسع النار أصبع الطفل فيعرف ضررها ويتحاشاها إلى الأبد.. وكما يتذوق الإنسان طعم الحنظل ويعرف مرارته فلا يقربه أبدا.. وقد يما قال الصوفية: من ذاق عرف..

إنه شيء مفيد حقا أن نسبر غور شخصية الطاغية لنعرف الظروف

التي جعلته يتحول من كائن إنسانى مفطور على النبل والطهر إلى وحش . . أو هو أقرب إلى الوحش . . يبطش . . ويستبد . . ويستهيئ بالحرمان . . لو درسنا حياة الطاغية فسوف نضع أيدينا على مفتاح شخصيته . . كيف عاش طفولته . . هل قضى طفولة سوية فى أحضان أبوين عطوفين . . أم كانت طفولته جافة قاسية كالبرثر التي جف نبعها . . هل تذوق فى صباه طعم الحب والعطف والحنان . . أم عاش محروما من هذه اللمسات الرقراقة . . هل كان يعطف على الحيوانات الأليفة . . أم كان يخنقها ويتلذذ بتعذيبها . . هل عرف فى شبابه معنى الحب أم عاش منبوذا فاشلا عاجزا عن اكتساب عواطف المرأة . . ماذا كان يقرأ فى شبابه . . وماهى هواياته .

إن كل هذه المعلومات - رغم بساطتها وسذاجتها - إلا أنها تلقى الضوء على المراحل الأولى من حياة الطاغية ، وتساعدنا فى تتبع المنحنى الشخصى له ، وتضع أيدينا على المنابع الأولى التي شكلت حياته ، فالحرمان من الأمومة قد يكون سببا . . والفشل العاطفى قد يكون سببا . . الفقر قد يكون سببا . . والخواء الروحى والدينى يدفع الإنسان إلى الاستهانة بالقيم العليا التي يتمسك بها سواد الناس ، ويعتبرها الطاغية ضربا من الدجل والخرافة ، والخواء العاطفى قد يدفعه إلى النعمة على كل ماهو جميل فى الحياة ، والإحساس القديم بالدونية والوضاعة يدفع الطاغية إلى الانتقام من كل ماهو شريف ونبل . . وهدم ذوى الهامات العالية حتى يكون الناس سواء فى الوضاعة .

أجل . . ليتنا ندرس حياة الطغاة فى شتى مستوياتهم ، سواء كانوا حكاما يتحكمون فى رقاب العباد ، أو جلادين أشبه بالمخالب التي تؤمر بتنفيذ بلا تفكير أو تردد ، ومن واجبنا أن نعرف الظروف النفسية والتربوية لهؤلاء الجلادين وكيف تحولوا إلى وحوش كاسرة . . وكيف سمحت لهم ضمايرهم بتمزيق الأجساد بالكراييج ، وهتك الأعراض ، وإهدار آدمية

خصم هو فى آخر الأمر إنسان يتعذب ويتألم ويستصرخ ولا من مجيب . . كيف كان يعود هؤلاء الجلادون إلى بيوتهم آخر النهار ويواجهون أولادهم وزوجاتهم بعد يوم حافل بالنشاط الإجرامى هل كانوا يتذوقون النوم عندما يضعون رؤوسهم على الوسائد . . أم كانت أشباح ضحاياهم تؤرقهم وتزلزل كيانهم . هل كانت لهم ضمائر تحاسب وتعاقب وتؤنب . . أم إن ضمائرهم ماتت كما مات كل شىء جميل فى حياتهم .

إن دراسة من هذا النوع تجعلنا نضع أيدينا على بذرة الطغيان التى سرعان ما تكبر وتتفرع وتتحول إلى وحش سرطانى يتحلل من القوانين والشرائع والأخلاق والأعراف والتقاليد . . ويصنع لنفسه قانونا خاصا، يجعل من الظلم عدلا . . ومن العدوان حقا . . ومن القهر فضيلة . . انظر إلى تاريخ الطاغية تجده يبيع لنفسه إبادة الخصوم حتى بعد أن يلقوا سلاحهم ويصبحوا فى يديه أسرى . . والعجيب أن المجتمعات الحديثة وضعت القوانين التى تحمى الأسرى وهم أمانة فى أيدي أعدائهم . . ولكنها لم تستطع حماية المواطن الذى يقع فى يد الطاغية . لأن الطاغية يرى فى القهر شكلا من أشكال السيادة . . وبعضا من حق الفتح الذى كانت تمارسه الجيوش المنتصرة فى العصور الغابرة فتبيع لنفسها بمقتضى حق الفتح - نهب البيوت وهتك الأعراض وسبى الأحرار . . وقد تستغرق أعمال النهب والسلب أياما . . ولا تتوقف إلا بإشارة من الفاتح المغرور يصدرها بعد أن تكون النصور قد شبت من الفتك والنهب والسلب . . وثملت من دماء المقهورين .

● إرادة الطاغية :

وتلك هى نظرة الطاغية إلى خصومه حين يستفرد بهم فيستبيح دماءهم وأعراضهم وأموالهم . . وتلك هى نظرتهم إلى رعيته حين تكون هذه الرعية ذليلة ضعيفة متخاذلة مغلوبة على أمرها . . عندئذ تكون

إرادته هي الحق الذي لا يأتبه الباطل . . فلا رد لمشيئته . . ولا معقب على حكمه . . لأن المستبد الطاغية يتصور أن إرادته أسمى من كل الإرادات وأن كلمته أقدس الكلمات . . وأن عبقريته تجب كافة عقول الناس الذين يحكمهم . . وأن ذكاءه يعلو ذكاء الأمة جميعا . .

انظر إلى هذه الصورة القوية التي قدمها المفكر الجليل عبد الرحمن الكواكبي في مطلع هذا القرن عن شخصية المستبد الطاغية :

« المستبد يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكم بهواه لأبشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس ، ويسدها عن النطق بالحق ، أو مطالبتها به . .

ثم يقول في كلمات حاسمة جامعة مانعة :

● **المستبد عدو الحق . . وعدو الحرية وقاتلها .**

والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل وتتملق ، وعلى الرعية أن تدرك ذلك ، فتعرف مقامها عنده ، هل خلقت خادمة له ، أو هي جاءت به ليعخدمها فاستخدمها؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف في وجه الظالم المستبد ، تقول له : لا أريد الشر ، ثم هي مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه . »

ولنا في ذلك عبرة بالأمة الفرنسية التي استسلمت لسيف الطغيان حيناً من الدهر ، واستنامت لإرهاب الثوار الذين ركبوا موجة الثورة التي قامت أصلاً لمقاومة الظلم وإقامة العدل ، ولكنها قننت الظلم وأطاحت بالعدل ، وأسلمت زمامها لزمرة من السفاحين أباحوا الدماء والحرقات والأعراض والأموال باسم الحرية . . وسرعان ما أفاق الفرنسيون حين أدركوا عمق الهاوية التي ينحدرون إليها في عهد الإرهاب الأسود . . فانتفضوا من سباتهم واجتثوا رأس الإرهاب - روبسبير - بعد أن أطاح

بكل الرؤوس . . ولم يبق على رأس الدولة غيره . . يحرك رأسه يمينا فترتعد
فرائص النواب . . أو يحركها يسارا فترجف قلوب أعوانه هلعا أن تطيح
بها سكين المقصلة .

● أغرب رجال التاريخ :

ولنا وقفة طويلة مع هذه الشخصية الغريبة التي يعتبرها مؤرخنا
الأديب حسن بك الشريف أغرب رجال الثورة الفرنسية طرا . . وأعقدتهم
شخصية . . وأعصاهم على الفهم والتحليل ، إن لم يكن أغرب رجل
عرفه التاريخ . . فهو لا يزال سرا مغلقا ، وسرا مستعصيا ، ذلك الرجل
الهائل الذي أراق من الدماء ما أراق ، وأزهق من الأرواح ما أزهق ، وهو
هاديء النفس مرتاح الضمير ، لا يدفعه إلى ذلك حقد ولا جشع ، ولا
يأخذه في ذلك إشفاق ولا ورع .

يقول الشريف : كان روبسبير شديد الكبرياء ، شديد التعالي ،
مفرطا في تقديس ذاته ، يود لو يرى الناس في عصمته عصمة الرسل ،
وفي كماله كمال الآلهة ، وكان يؤمن بالفضيلة ويريدها أساسا للجمهورية
الفرنسية الوليدة ، وينصب نفسه ممثلا أعلى للفضائل الإنسانية ، يدعو
الحاكمين والمحكومين إلى الأخذ عنه والافتداء به .

وإذا كانوا قد خلعوا عليه لقب « المعصوم » فلأنه كان حقا - كما شهد
له المؤرخون - فوق متناول الفتنة أو الإغراء وماظنك برجل عاش طاهر
الذيل ، نظيف اليدين ، عفيفا لم يعرف عنه أنه صبا إلى امرأة ، أو استحل
مالا من مصدر مريب ، ويتزايد تقدير المؤرخين لنزاهته كلما تذكروا أن
الفساد في عصره كان قد ساد الذمم ، وطغى على الأخلاق .

كان روبسبير يحتقر المال حتى ليأنف أن تمسه يده ، وفطر على كراهية
النساء حتى لتتحمل نفسه كل شيء إلا أن يرى امرأة تتدخل في الشئون

العامة، أو نقحم نفسها في المسائل السياسية وأمور الأحزاب، ولقد تعقب بحقده النساء اللاتي أردن أن يكون هن شأن في قيادة الرأي، أو في توجيه سياسة الهيئات، ولقد غالى بنفسه عرفانه لقيمتها فصانها عن صحبة الناس، ورفعها فوق المستوى الاجتماعي الذي عاش فيه، فلم يختلط بالشعب، ولم يجار الزعماء في التقرب إلى الدهماء يلبس لباسهم الحقير، ولم يصطف من صحابه سوى الفتى (سان جوست) لأنه كتب إليه يوما: « أنت يا من لا أعرفك إلا بآياتك كما لا أعرف الله إلا بآلائه ». ولم يصطنع أعوانا إلا (ماراه) لأنه أسماه « المعصوم » و(كوتون) لأنه خطب مرة فقال: إن روبسبير هو العبقري النزيه الذي لا ترقى إليه الغواية، والوطني العظيم الذي يضىء الجمهورية بفضائله.

ولقد انتهى الرجل إلى أن حسب نفسه المختار من العناية الإلهية لتطهير المجتمع من أدران الرذيلة، والمرسل من السماء برسالة يؤديها في هذا العالم، وهي إقامة حكم الفضيلة فيه، فبات يعتقد أنه يمثل الفضائل السياسية والمدنية كلها، وأن من خاصمه فقد خاصم الحرية وخاصم الفضيلة، وخاصم الجمهورية وسائر المعاني الإنسانية الرفيعة التي جاء ليرفع منارها وليدعو الناس إليها.

ولما كان يعلم أن الرذيلة متأصلة في المجتمع حتى ليتعذر استئصالها بالمثل التي تضرب، أو بالقوانين العادية، لم ير غير الطغيان، وسيلة لمكافحة ودرء شرورها على أن يكون هذا الطغيان هو الآخر فاضلا ونزيها ولايتأثر بالأغراض، ولا يعمل إلا للصالح العام، وقال في ذلك قوله الشهيرة: « نحن لانريد الطغيان لذاته... وإنما نريده دعامة للجمهورية الصالحة ».

فلتكن الفضيلة إذن قاعدة الحكم، ولتكن الجمهورية الصالحة هي نظام الحكم، وليكن الطغيان النزيه هو وسيلة الحكم، فإذا فهمت هذه المعادلة الغريبة واستطعت أن توفق بين أركانها فقد فهمت روبسبير

واستطعت أن توفق بين مبادئه وسياسته ، ولكى تقوم الجمهورية الصالحة على أسس قوية من الفضيلة يجب أن يكون الطغيان عاما وشاملا يسوى بين الجميع ولا يفرق بين الحاكمين والمحكومين ، وأن يكون منظما بحيث يكفل تحقيق الغاية التى وجد لتحقيقها ، وبحيث يحمى نفسه من طغيان الرذيلة عليه وأن يهيمن على تنفيذه رجل كامل لا ترقى الريبة إلى عصمته ، ولا يتسامح فيما يمس مصالح الوطن وشئون البلاد: وهذا الرجل هو روبسبير.

ومن ثم كان تأليف لجنة الإنقاذ العام بمثابة هيئة تنفيذية ، وتشكيل المحكمة الثورية بمثابة هيئة قضائية ، ومن ثم أيضا كان سن قانون المشبوهين الذى يأخذ الناس بالشبهات والنيات لا بالجرائم والأعمال ، وسن قانون المرافعات الذى يحرم المتهمين حق الدفاع عن أنفسهم ويقصيه عن قاعة الجلسات عند محاكمتهم ، ويعفى القضاة من سماع الشهود ومن قراءة الأوراق ، وسن قانون الاتهام الذى يميز القبض على نواب الأمة بقرار من لجنة الإنقاذ وبغير استئذان المجلس الوطنى فى رفع الحصانة النيابية عنهم ، وسن قانون الأحكام الذى يميز الحكم على المتهمين فى قضية واحدة حكما يشمل الجميع دفعة واحدة بصرف النظر عن مبلغ نصيب كل منهم فى التهمة العامة .

وكأنما كان جنون الكبرياء يصور لروبسبير أن ليس لشخصه أعداء ولا أصدقاء ، وإنه لا يدين لأحد بفضل ، ولا يضرر لإنسان ضغينة ، وإن جميع مواطنيه مدينون له بنعمة وجوده بينهم ، فمن والاه منهم فقد والى الفضيلة وكفاه ذلك مجدا وشرفا ، ومن عاداه فقد عادى الفضيلة واستحق الموت . لذلك لا نعجب إذا رأينا يضرِب أصدقاءه بنفس القسوة التى يضرِب بها أعداءه ولا تأخذه فى أحدهم رحمة ولا يشفع لهم لديه أى اعتبار.

● سيف الإرهاب :

لقد أطاح الطاغية بكل الرؤوس التى رأى فيها عقبة فى طريق إقامة الدكتاتورية الفاضلة ، ولم يبق أمامه سوى المجلس الوطنى (البرلمان) وقد بدأت تفوح منه رائحة الخوف من أن يمتد إليه سيف الإرهاب . وأصبح الأمر صراعا على البقاء بين الدكتاتور الرهيب ، وأعضاء المجلس الوطنى ، وسارع روبسبير فاستصدر قانونا بإلغاء الحصانة البرلمانية حتى يتسنى له ذبح من يتجراً على معارضته من النواب بعيدا عن الحصانة ، وبات النواب يتحسسون رقابهم ويتوقعون قطعها بين لحظة وأخرى ، فكان بعضهم يهجرون بيوتهم ويقضون الليل فى المخابئ أو الحدائق العامة . . ولكن الخوف تحول فى نفوس النواب إلى قوة . . لعلها حلاوة الروح التى جعلتهم يزمعون الوقوف فى وجه الطاغية . . وليموتوا وهم وقوف إذا لم يكن من الموت بد . . واتفقت إرادة مائة نائب على مطالبة المجلس بإعادة النظر فى قانون إلغاء الحصانة البرلمانية ، ولكن روبسبير نظر إليهم نظرة أفزعتهم فراجعوا . . ثم هددهم بأنه لايفعل شيئا إلا بإرادة الشعب . . وإن الشعب على استعداد لسحقهم . . بيد أن الشعب كان قد اكتشف أكذوبة الدكتاتور ، وإنه فعل كل هذه الآثام مدفوعا بشهوته الدموية ، وإن الشعب برىء من هذه المزاعم ، وأحس المجلس الوطنى بهذه الروح الجديدة تسرى فى الشعب ، وأنس فى نفوس الناس مقتا للإرهاب ، فاشتد عود النواب وقر عزمهم على مقاومة الطاغية مهما كان الثمن .

وعندما اتحدت إرادة النواب - ومن خلفهم إرادة الأمة - على نبذ الإرهاب - كان القدر يرسم النهاية المحتومة لهذا الطاغية الذى أصبح اسمه علما على الإرهاب فلنتوقف قليلا لنلتقط أنفاسنا قبل رؤية المشهد الرهيب . . مشهد الطاغية وهو يتقدم نحو المقصلة ليتذوق من نفس الكأس التى أذاقها لآلاف الضحايا والأبرياء .

صرع كبير الطغاة

الشعوب قد تغفل عن مفسد الدكتاتورية بعض الوقت ، فتسكت عنها وتسلم قيادها للدكتاتور وتسير من ورائه مغمضة العين ، وهى تعزف لحن المجد والخلود والعظمة والغرور . ولكنها فى لحظة من لحظات الانبهار الذاتى تكتشف عمق الهاوية التى تسير إليها ، فتفريق من سكرتها وتكافح من أجل استرداد إرادتها الحرة ، ولا يتصور الطاغية أن يفلت الصيد من شباكه فيزداد عتوا وصلفا . وفى هذه المرحلة الختامية تدخل الأمة فى صراع البقاء مع الطاغية الذى يتحول إلى وحش مفترس . . . ولكن الأمة تستجمع شجاعته فتفتك به . . ثم تكتشف أن الوحش المصور لم يكن سوى نمر من ورق . . وهذا ما حدث للأمة الفرنسية مع كبير الطغاة روبسبير الذى أطاح بكل الرؤوس وجعل من فرنسا مسلخا رهيبا حتى بلغت أحكام الإعدام التى نفذت خلال الأسابيع الستة الأخيرة من حكمه المشؤم ١٣٧٦ حكما ، وفى الليلة الأخيرة من عمره كانت السجون الفرنسية تضم بين جدرانها ٩٥٠٠ رهينة تنتظر المصير الأسود على حد المقصلة ، وكان إصدار قانون إلغاء الحصانة البرلمانية هو القشة التى قصمت ظهر الطاغية ، فقد دب الهلع فى نفوس النواب وأدركوا أنهم أمام طريق من اثنين لا ثالث لهما . . فإما أن يجتثوا رأس الإرهاب فتكتب لهم النجاة . . وإما أن يملكهم الخوف فيساقوا إلى المقصلة كالنعاج . . وشهدت قاعة البرلمان الفرنسى المشهد الأخير من حياة كبير الطغاة الذى لطح تاريخ الثورة الفرنسية بالدم والعار .

وإليك تفاصيل هذا المشهد الدامى الذى سجلته أقلام المؤرخين عبرة لمن يريد أن يعتبر.

فى السادس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٧٩٤ ارتقى روبسبير منبر المجلس الوطنى وألقى خطابا مسهبا شكافيه إلى النواب ماتعانيه الحرية من آثار السعائيات الخفية التى يسعاها الدساسون والمنافقون، وحاول أن يبرى نفسه من تهمة الطغيان ملقيا مسئولية سياسة الإرهاب على المتطرفين من ممثلى الأمة. وفرر أن الهيئات العليا الثلاث - وهى المجلس الوطنى ولجنة الإنقاذ ولجنة الأمن العام - تضم كثيرا من عناصر الشغب وهواة الدسائس والفتن. وإن أوجب الواجبات وأولاها بالتقديم إنما هو «تطهير» المجلس الوطنى نفسه وتركيز جميع السلطات فى يديه ليصبح المسيطر الأعلى على شئون البلاد. وقال: «قد باتت النفوس الشريفة تعاف هذه الحال ولا تطيق الصبر عليها، فيجب الضرب على كل الأيدى العابثة وسحق جميع الرؤوس المجرمة التى تدبر فى الخفاء مكائدها للحرية والجمهورية، وأخذته العزة بالإثم فصاح: «أيها المواطنون. لقد خلقت لأقاوم الإجرام لا لأحكم المجرمين»

عندئذ سرت فى النواب قشعريرة الخوف، وما إن سمعوا فوله «تطهير المجلس وتطهير اللجان» حتى أدرك الكثيرون منهم أنهم معنيون بالذات وأن عملية التطهير سوف تتناولهم، ولاح أمام أعينهم بريق سكين المقصلة ولحوا شبح الموت يرفرف فوق رؤوسهم بمنجله الرهيب، فانطلق زعماء المتطرفين الذين ألقى عليهم الزعيم مسئولية سياسة الإرهاب وفى طليعتهم فوشيه وكولو ديربوا وماراه وتاليان وفريرون وبيلو فارين - يوحدون صفوف خصوم الطاغية ويزيلون ما بينهم من الخلاف، ويوفقون بين المطالبين بثأر دانتون والمطالبين بثأر ايير، ويذكون فى نفوس الجميع نار الحق على العدو المشترك ويصورون لكل واحد مدى الخطر الذى يتهدده ويؤكدون له أنه لا محالة هالك إذا لم يهلك روبسبير.

ولقد أفلح أولئك الموتورون في بث الذعر في القلوب وإثارة غريزة البقاء في النفوس وتحريك الأحقاد في الصدور ، فلما ألهبوا الهمم الفاترة وشحذوا العزائم المنحلة وأيقظوا القوى الخائرة صار المجلس يغلى كأنه القدر فوق النار الحامية ، وتمحضر الأعضاء للهجوم مؤثرين أن يموتوا كراما مجاهدين على أن يذهبوا إلى النطع كالسائمة أذلة صاغرين .

ووقف أحدهم ، وهو النائب كامبون ، وكان روبسبير قد أشار إليه بقوله :

« أصحاب الأموال الذين يسيلون الدمع أمامكم إشفاقا على الشعب وهم يرتشفون دمه في نهم ولذة » - وقف هذا النائب المهدد في حياته وصاح : إذا لم يكن لي بد من الموت فلا أقل من أن أصارح فرنسا بما في نفسي : « إن في هذه الهيئة رجلا واحدا هو الذي يشل إرادتها ويعطل مشيئتها وهذا الرجل هو روبسبير » .

واستولت على الأعضاء رعدة شديدة عندما هوت تلك الكلمات من شفتي النائب الجريء وتحولت جميع الأنظار إلى روبسبير لترى ماسيكون من أمره ، فلما لم يتحرك ولم يقل شيئا تشجع الآخرون وارتقى النائب ييلو فارين المنبر وألقى خطابا عنيفا عرض فيه بالطاغية أيما تعريض وختمه بصيحة هائلة تنم عما في نفسه من حقد وغل فقال : « كفى رياء ومداجاة أيها المواطنون ، وهلموا ننزع القناع عن وجه المستبد العاتى فإنه لخير لنا أن يقتلنا ويتخذ من أجسادنا أرائك يعتليها ، من أن نتشيع بالصمت لهذا الطاغية الطماع » .

وانهالت الاتهامات على روبسبير من كل صوب ، ولكنه صمد لها مستهينا أو واثقا أن هذا المجلس الذى طالما أحنى الرأس أمامه استكانة وصغارا ، وانقاد لرغباته كارها أو مختارا ، لا يستطيع اليوم أن يثور عليه ثورة جدية أو أن يصارحه بعداء خطير .

وغادر قاعة الاجتماع إمعانا فى احتقار خصومه ، وذهب قبيل المساء إلى نادى اليعاقبة فقبول فيه بأروع مظاهر الحفاوة والتكريم ، وألقى على شيعته خطابا رشق فيه أعداءه بسهام مسمومة وقال : « إن هذه الخطبة التى تسمعونها الآن قد تكون خطبة الوداع ، لأن الخونة يأتمرون بى ليقتلونى . ولكنى إذا سقطت تحت ضربات أولئك الأثمة المجرمين فإنما أسقط راضيا عن نفسى موقنا أننى أديت الواجب على نحو الوطن والفضيلة والحرية وهى الأقانيم الثلاثة التى ما عشت إلا لها والتى يطيب لى أن أموت فى سبيلها » .

ولقد استمع اليعاقبة إلى هذه الخطبة فى صمت وخشوع ، فلما نزل روبسبير من المنبر تلقوه فى أحضانهم وهتفوا له هتافا كبيرا ونادوا بسقوط أعدائه . وإذ أبصروا بينهم اثنين من هؤلاء الأعداء وهما يبلو فارين وكولوديربوا ، انهالوا عليهما سبا ولكما وطردهما من النادى فى غلظة وقسوة وتوعدهما بسوء المصير .

وارتاحت نفس روبسبير بعد هذا الحادث واطمأن قلبه وأيقن أن له من نادى اليعاقبة ومن الهيئة البلدية أكبر عون على المجلس الوطنى ، فبات هادئ البال غير متوقع ما يخبئه له الغد من ويل عظيم .

وفى اليوم التالى (٢٧ يوليو) انعقد المجلس الوطنى بعد ليلة قضائها فوشيه وتاليان ويبلو فارين وكولوديربوا فى تدبير الحملة على الطاغية وإحكام روابط الوفاق بين مختلف الأحزاب .

وكان كولوديربوا فى كرسى الرئاسة وقد ارتقى سانجوست صنيعة روبسبير ، المنبر وبدأ يتلو خطابا كان قد أعده من قبل وحدد فيه التهم المعزوة إلى خصوم زعيمه . ولكنه لم يكذ ينطق بالجمل الأولى حتى قفز تاليان إلى المنبر وصاح : « لقد شبعنا من هذا الكلام المبهم والتلويح الغامض ، فهل لروبسبير أو للذين يتكلمون باسمه أن يصارحونا بحقيقة ما يريدون ؟ » .

وقابل المجلس هذه الصيحة بالتصفيق المتكرر وبعلامات الموافقة والاستحسان ، ووقف بيلوفارين وقال : « إن روبسبير يريد موتنا ونحن لانخاف الموت ، ولكننا نريد أن نموت شرفاء . لقد خلقنا أحرارا وجعلنا مهمتنا في الحياة نشر مبادئ الحرية وتدعيم قوائمها فكيف نرضى أن يستعبدنا مغرور متعطش إلى الدماء ؟ . . إن أولئك المنافقين الذين يتمشدقون فوق هذا المنبر بكلمات العدل والفضيلة والحرية لهم أشد أعدائها بأسا عليها ، وإنهم ليدوسونها بأقدامهم كلما تعارضت مع شهواتهم أو كلما أمنوا الفضيحة والعقاب . إنى أقرر أمامكم أيها المواطنون أن عضوا من أعضاء لجنة الإنقاذ العام قد اختلس مائة وأربعة عشر ألف جنيه ، وقد حاولت استصدار مرسوم بالقبض عليه فلم ينقذه من يد العدالة إلا ذلك المتباكى على القانون والعدالة : روبسبير .

عندئذ استشاط روبسبير غضبا وهب من مقعده وهرع إلى المنبر ، ولكن عاصفة من الهتافات العدائية استوقفته في وسط الممشى ، فالتفت يمنة ويسرة متفقدا أولئك الأنصار والأصدقاء والأولياء الذين طالما أيدوه وناصروه ، لم يسمع إلا أصواتا تنادى بسقوطه وأيادى منقبضة تمتد أمام وجهه متهددة متوعدة .

وأبى الرئيس كولو ديربوا أن يمنحه حق الكلام ، فوقف في مكانه جامدا يتميز من الغيظ ويحاول أن يملك هياج نفسه فلا يستطيع .

وكان تاليان قد تسلم كتابا من زوجته السجينة تقول له فيه إن الغد قد تحدد موعدا لإعدامها وتعاتبه على تقصيره في إنقاذها وترميه بالجبن والندالة ثم تتضرع إليه أن يخلصها من الهول الذى تعانيه . وكان الرجل يحب زوجته الجميلة حبا يصور له الحياة بغيرها مستحيلة . وقد زوده الحب بشجاعة لم يعرفها في نفسه من قبل فاستعان بهذه الشجاعة دفعة واحدة وقال : « نريد أن نمزق القناع عن بعض الوجوه القبيحة فيتبينها الشعب على حقيقتها المروعة البشعة ولن نبرح هذه القاعة حتى نهتك

ستر الطغاة الذين ينكلون بالأمة ويسفكون دمها ويفرضون شهواتهم على ممثليها قانونا ودستورا . فإذا لم يأنس المجلس في نفسه الشجاعة التي تجعله يقرر القبض عليهم ومحاكمتهم ، فهذا خنجر أتيت به لأغمده في صدر الطاغية الأكبر فأنقذ من شروره البلاد والعباد .

واستل الخطيب من جيبه خنجرا براقا غرسه بضربة قوية في خشب المنبر، فدوت الأكف بالتصفيق والحناجر بالهتاف ، وتصاعدت الأصوات من كل ناحية صائحة : « يسقط المستبد يسقط الطاغية الملعون » .

ووقف روبسيير كالمشدهو يصيح بكلمات متقطعة فتضيع بين الجلبة والضوضاء ، وينظر يمنة ويسرة كأنه يستجدى كلمة أو حركة تأييد فتصرف عنه العيون ولايقابله أنصار الأمس إلا ببسمات الشهامة والاستنكار . فلما يثس من نجدة هؤلاء الأنصار وانقطع رجاؤه في تأييدهم أجال الطرف بين المستقلين وناداهم ؛ إنى أوجه الكلام إلى كل رجل شريف في هذا المكان ، أوجهه إليكم أنتم أيها الرجال الأفاضل الأطهار . وضاعت بقية عبارته بين عاصفة الأصوات الهاتفة : « يسقط روبسيير إلى المقصلة ياروبسيير . » . ورفع الزعيم يده مرة أخرى مستأذنا في الكلام فأشاح عنه الرئيس بوجهه قائلا : « لن أسمع لك به قبل أن يأتى دورك » فبهت ولبث واجما تكاد عيناه تخرجان من محجريهما وانعقد لسانه أو كاد ، وحاول أن يتكلم فتحشرح صدره واعتراه سعال عصبى شديد أدمع مقلتيه . وعندئذ وقف النائب جازنيه وأشار إليه بأصبعه إشارة مسرحية وقال : « إن دم دانتون هو الذى يخنقك الآن ياروبسيير » وماسمع روبسيير هذه الكلمات حتى مثل أمام ناظريه رأس الزعيم الفقيد فتراجع خطوة إلى الوراء ورفع يده كأنه يزيح بها شبح الرجل الهائل الذى ذهب ضحية لمطامعه ، وقال : « إذا فأنتم تثارون اليوم لدانتون ! » فأجابته أصوات من شتى نواحي المجلس هاتفة : « يسقط القاتل . . يسقط الطاغية . . إلى المقصلة ياشارب الدماء » وفى حركة

من تلك الحركات التى يدفع إليها الناس ، هجم روبسيير على منصة الرئاسة ولوح بقبضة يده إلى كولوديربوا مهددا وصاح : « أما بعد . فيا رئيس المجرمين ألن تسمح لى بالكلام؟ » قوبلت ثورته بصيحات الحنق والاستنكار ونهض النائب لوشيه وقال :

« أقترح على المجلس تقرير القبض على مكسيمليان روبسيير » . وعززه نائب آخر اسمه لوازوه فقال : « لقد كان روبسيير لعنة على الجمهورية ونقمة على مواطنيه فاقترح أيضا تقرير اتهامه ومحاكمته » .

وأمر الرئيس بجمع الآراء وأسقط فى يد روبسيير عندما أبصر أحزاب اليمين وأحزاب اليسار وأحزاب الوسط تقف معلنة موافقتها على الاقتراحين ، فتضعضعت عزيمته وخارت قواه وارتقى على أقرب مقعد إليه لا يبدئ ولا يعيد .

وكان له أخ فى المجلس اسمه أوجستان عز عليه أن يفترق عنه فنهض وقال : « إننى أعتبر نفسى شريكا لأخى الأكبر فى كل فضائله ، فما دمت قد اعتبرتم تلك الفضائل جريمة فأنا شريكه فيها وأرجو أن تقرروا القبض على أنا أيضا » .

ثم نهض النائب لوباه ، صديق روبسيير ، وقال : « إنكم ترتكبون الآن جريمة بشعة لا أستطيع أن أشارككم فيها بصمتى ، فأطلب أن تعدونى شريكا للأخوين » .

ولم يستطع المجلس فى هياجه أن يقدر مبلغ ما فى هاتين العاطفتين ، عاطفة الأخوة وعاطفة الصداقة ، من كرم ونبالة ، فأصدر قراره بالقبض على أوجستان ولوباه .

وكانا أبى أعداء روبسيير إلا أن يغتنموا فرصة استسلام المجلس لمشيئتهم ليتخلصوا من كافة خصومهم ، فقدم بيلو فارين اقتراحا آخر بالقبض على جميع أعوان الطاغية وفى مقدمتهم سانجوست وكوتون

ودوماس رئيس المحكمة الثورية ، والجنرال هانريو قائد جيشها ، فصدر القرار بالقبض عليه وعلى ثلاثة وثلاثين من أنصارهم وقوبل هذا القرار بالتصفيق الحاد والصيحات الهاتفة « لتحيى الحرية ولتحيى الجمهورية » .

وأشار الرئيس إلى الحراس فانتزعوا النواب الخمسة من مقاعدهم واقتادوهم إلى الخارج تمهيدا لزوجهم في السجون ، وأمر برفع الجلسة على أن تعود إلى الانعقاد بعد ساعتين ، ظانا أن المجلس الوطنى قد أحرز بتلك القرارات انتصارا حاسما لم يبق بعده إلا أن يلقي المتهمون حتفهم فى ساحة الإعدام . ولكن فاته أن يحسب حساب هيئة البلدية الموالية لروبسبير .

كانت هيئة البلدية منعقدة عندما تناهت إليها قرارات المجلس الوطنى ، فهاج هائجها وعظم عليها الأمر وقررت الثورة على هذا المجلس ودعوة الشعب إلى حمل السلاح لتخليص زعمائه ، وأرسلت رسلها إلى السجون مزودين بأوامر تقضى بالإفراج عن المقبوض عليهم جميعا . وانتشر بعض أعضائها فى المدينة يدقون أجراس الكنائس إيذانا بالخطر العام ، فهرع الأهالى من مساكنهم إلى الشوارع والطرق يتساءلون عن النبأ العظيم وهم بين متردد لا يريد أن يصدق وحائر لا يدري ما ينبغى أن يفعل .

وهنا نقف بالقارئ هنيهة نتدبر فيها عظمة الأقدار فنرى كيف تترتب أخطر النتائج على أحقر المقدمات وكيف تتغير وجهة التاريخ ويتبدل مجرى الأحداث لأتفه الأشياء وأصغر الأسباب .

فلو أن الأقدار أرادت أن تنقذ روبسبير وأصحابه فى ذلك اليوم العصيب ، لوضع الجنرال هانريو نفسه على رأس جيشه ولقاد هذا الجيش وحاصر به المجلس الوطنى وقبض على تاليه وفوشيه وكولو ديربوا وبقية

تلك الشرذمة التي أثارت العاصفة في وجه الطاغية ، ولعاد روبسبير بعد ذلك مظفرا منصورا ليقصد المجلس ويظهره من أعدائه ومشاغبيه ليفرض إرادته على سائر الأعضاء الذين يكونون قد تلقوا درسا يعلمهم أى منقلب ينقلبه كل من ثار على الزعامة والزعيم .

ولكن هانريو كان مخمورا ذلك اليوم ، وكانت الخمر قد أذهبت صوابه ، فبدلا من أن يبادر بجيشه إلى تأديب المجلس الثائر، أخرج غدارته من جيبه وانطلق كالمجنون بجوب الأزقة والطرق شاهرا هذا السلاح المخيف في يده ليدعو به الناس إلى النجدة والمعونة وليحضهم على نصره الزعماء المضطهدين ، فكان الناس يظنون أن خبلا قد أصابه ويولون منه فرارا . وهكذا ضاعت الفرصة الثمينة وأمضت هيئة البلدية ساعتين طويلتين في البحث عن قائد جيشها ، وهى لاتدرى أنه هائم على وجهه في الشوارع والدروب أشعث الشعر أغبر الوجه يضحك قوما ويخيف قوما آخرين .

وكأنها أرادت الأقدار أن تتضافر للقضاء على عهد الإرهاب فأبى روبسبير أول الأمر أن يلحق بزملائه لينظم معهم وسائل المقاومة والدفاع ، وظل مترددا وقتا طويلا حتى جاء هؤلاء الزملاء وحملوه غصبا إلى دار البلدية ولبثوا يقنعونه بوجوب إصدار منشور إلى الشعب يدعونه إلى حمل السلاح في وجه المجلس الوطنى ، ولبث روبسبير فى تردده يفحص المسألة من ناحيتها القانونية ويناقش شرعية هذا المنشور والصفة التى تخوله حق توقيعه .

وكانت جموع الشعب قد تكاثرت حول دار البلدية هائجة مائجة نهتف وتصبخ وتنتظر قرار الزعماء فلما طال بها الانتظار وأضجرها الوقوف بدأت تتسرب وتتبدد شيئا فشيئا حتى لم يبق منها إلا شراذم متفرقة هنا وهناك . وكان اليوم حارا قائظا اشتدت سماته وتوهجت حمارته وقد أخذت السماء تتلبد بالغيم المربد ولم تلبث حتى أمطرت الأرض وابلا

عنيفاً أخلى الميادين من بقايا تلك الجموع وترك هيئة البلدية تتداول الرأي بين جدران الدار بلا جيش يحميها أو شعب يؤيدها .

وفي تلك الأثناء كان المجلس الوطني قد عاد إلى الانعقاد وأحيط خبراً بما حدث من إطلاق سراح المتهمين ومن ثورة هيئة البلدية فرأى أن يتدارك الأمر في حزم وسرعة وأن يستفيد من تلكؤ خصومه ليضربهم الضربة القاضية قبل أن يتسرعوا في عمل شيء . . فأصدر أمره إلى الجنرال باراه ، أحد أعضائه ، بالسير على رأس الفرق التي ظلت موالية له ليأتى بالمتهمين وبأعضاء هيئة البلدية مصفدين . وأصدر في الوقت ذاته قراراً بإهدار دمائهم وباعتبارهم غير مشمولين بحماية القانون .

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة من الليل لما دهم باراه وجنوده دار البلدية واقتحموا أبوابها شاهري السيوف والبنادق والمسدسات وكان الجدل لايزال على أشده بين روبسيير وأصحابه حول النظريات الفقهية وشرعية المنشور عندما دنا منه جندي اسمه ميدا وأهاب به : « سلم نفسك يا خائن » فنظر إليه الطاغية شزرا وأجاب « إنما الخونة أنتم وسأمر بإعدامكم اليوم » وعندئذ تناول ميدا مسدسه وأفرغه في وجه الزعيم فهشم فكه الأسفل فهوى من مقعده وهو يتلوى ويصيح .

وانتشر الجند في الأروقة والغرف والردهات يبحثون عن الثائرين فيقبضون على بعضهم بغير مقاومة ويلتقطون البعض من تحت الأرائك وفي الزوايا المظلمة من الأقبية والسراديب . ولقد سمعوا دوى طلق نارى فذهبوا ليتبينوا مصدره فإذا النائب لوياء قد قتل نفسه برصاصة من غدارته ، وإذا روبسيير الصغير يحاول الفرار قفزاً من النافذة فيسقط وتنكسر ساقاه ، ثم إذا كونون يزحف على بطنه متلمساً مخبأً يختبئ فيه ، فيقبضون عليهما ويكبلونهما بالحديد . أما سانجوست فلبث جاثماً فوق مقعده ينظر إلى مايجرى حوله ولايحاول إفلاتاً ولايبتغى نجاة فلما اقترب منه الجنود نهض وأسلم نفسه في دعة وسكون . وحذا حذوه أعضاء الهيئة

البلدية فاستسلموا للقوة صاغرين . ولم تدق الساعة الثانية من الصباح حتى كان باراه يقود هذا القطيع الهائل إلى دار لجنة الإنقاذ العام .

وكانوا قد ضمدوا وجه روبسبير وألقوه على منضدة ظل بعانى فوقها أشد الآلام وأبلغ الإهانات . فلقد التفت حوله جمهرة من أخلاط الناس لم تبق فى قاموس الشتم والسباب ومعجم الشماتة والتشفى كلمة إلا وجهتها إليه . وكان قد فقد وعيه أو كان يتظاهر بفقدان الوعي عسى أن يترفق به أولئك الأفظاظ القساة القلوب ، ولكن أبى الله ألا أن يذوق الطاغية مرارة الهوان قبل أن يذوق مرارة الموت .

وقبيل المساء صدر حكم المحكمة الثورية بإعدام جميع المتهمين فوضعوا فوق العربات وسيقوا إلى ساحة الإعدام وظل روبسبير ينظر إلى رفاقه وأصحابه ورؤوسهم تهوى إلى السلة بعد أن تحزها السكين فلما جاء دوره حملوه إلى المقصلة ونزعوا الرباط عن وجهه فصاح من فرط الألم صيحة هائلة ، وأدار الجلالد اللولب فانحدر رأسه عن جسده وزهقت روحه محملة بأبشع الأوزار وأثقل الآثام .

الفهرس

الصفحة

الحسين سيد الشهداء.....	٥
الحسين عند مفترق الطرق.....	١٤
فى الطريق إلى كربلاء.....	٢٢
مذبحة كربلاء.....	٣٠
استشهاد أم انتحار.....	٣٩
حكام متألهون.....	٤٥
ابن جلا .. قاهر العراق ..	٥٣
الأمير الثائر.....	٦٣
أمن الدولة وأمن الرعية.....	٧٣
الحرية الحمراء.....	٨٣
محاكم التفتيش.....	١٠٠
المرأة الحديدية.....	١١١
الإرهاب الثورى.....	١٢٢
الدكتاتورية البيضاء.....	١٣٣
مصرع كبير الطغاة.....	١٤١

رقم الإيداع ٩٦/١٦٣٥
ISBN 977-09-0318-3

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

